

إفصل الثالث

الحياة العقلية

١

الامتزاج الجنسي واللغوي والثقافي

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالاً ، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر والمغرب . وهي أوطان كثيرة ، وكان يعيش فيها منذ القدم شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة ، غير أنها لم تكده تدخل في نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجاً قوياً ، فإذا بنا إزاء أمة عربية تتألف من أجناس مختلفة ، وقد مضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي حتى غدت كأنها جنس واحد .

ومن أهم الأسباب التي هيأت لذلك نزول القبائل العربية في الأمم المفتوحة وامتزاجها بشعوبها في السكنتي وعن طريق المصاهرة وتسرى الإمام ، بحيث غدت بيوت العرب تزخر بالجواري من كل جنس : سنديات وحشيات وفارسيات وخراسانيات وتركيات وروميات وصقلييات ، وبحيث أصبح العربي خالص الدم في بغداد نادراً ، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب أمهاتهم من الجوارى والإماء ، وكذلك الشأن في الخلفاء أنفسهم على نحو ما أشرنا إلى ذلك في الفصل السابق .

وكان وراء هذا المزج الدموي بين العنصر العربي والعناصر الأجنبية مزج روحي عن طريق الولاء الذي شرعه الإسلام والذي اتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم ، فالشخص يكون فارسياً أو هندياً أو رومياً أو قبطياً ويكون عربياً ولاء ، وحتى الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالى لأصحابهم وينسبون إلى قبائلهم مثلهم مثل أبنائها الأصليين ، وقد دعا الإسلام إلى هذا التحرير دعوة واسعة ،

وجعله كفارة عن كل ذنب كبير أو صغير ، وكان كثير منهم حين يبحرون يجيئون ويعتلون المناصب الكبرى في الدولة .

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلى أحرار الموالى الذى كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة ، وقد دخلت كثرتهم فى الإسلام ، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يكفّل للناس من عدل ومساواة ، وحقاً تعسف معهم الأمويون ولكن العباسيين ردوا الأمر إلى نصابه ، بل لقد فسحوا للفرس كى يغلبوا على العرب فى تصريف شئون الدولة . وحتى من لم يسلم من الموالى: من الجوس والصابئة والنصارى أخذ يندمج فى المحيط العربى بفضل ما شرعه الإسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية . وبذلك فُتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق - على مصاريعها - فى جميع شئون الحياة ، وحقاً دخل جمهورهم الضخم فى الإسلام ولكن دون إكراه أو عنف أو عسف .

وبذلك استطاع الإسلام - بتعاليمه السمحة - أن يحدث امتزاجاً قوياً بين العناصر المختلفة التى كانت تتألف منها الدولة العربية ، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة ، إنما بلغه بامتلاك القلوب ، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التى انبسط عليها سلطانه تُسَلَّم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الأخوة الكريمة .

وقد أسرع من أسلموا من الشعوب المفتوحة جميعاً إلى تعلم لغة القرآن الكريم والحديث النبوى ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العربية تسود فى كل أنحاء العالم الإسلامى لا بين المسلمين وحدهم ، بل أيضاً بين غيرهم ممن بقى على دينه القديم لافى البيئات التى كانت قد أخذت تستعرب فى العصر الجاهلى: بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب ، بل أيضاً فى البيئات النائية : فى إيران وخراسان ومصر وبلاد المغرب ، وهى بيئات لم يكن لها بالعروبة عهد من قبل ، فإذا هى تتعرب وتتعرب معها الأطراف الغربية للقارة الأوربية فى الأندلس .

وكان سكّان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة ، ففى إيران كانوا يتكلمون الفهلوية ، وفى العراق والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية وما انبثق منها من النبطية والسريانية ، وفى الشام كانوا يتكلمون اللغة الأخرية ولغات سامية مختلفة ، وفى مصر

كانوا يتكلمون القبطية وفي بلاد المغرب كانوا يتكلمون البربرية . وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع – منذ غزو الإسكندر – في الأوساط الثقافية بالشرق كله : في إيران والعراق والجزيرة والشام ومصر ، بينما كانت اللاتينية تشيع في تلك الأوساط بشمالى إفريقية والأندلس .

ولا نكاد نتقدم في كل هذه البيئات بعد فتحها بنحو قرن حتى نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحاءها القريبة والبعيدة ، وكان هذا تطوراً خطيراً حدث فيها ، إذ أصبحت شعوبها جميعاً عربية اللغة والتفكير والشعور والثقافة والأدب والحضارة . وقد اختلف إسرعها إلى هذا التعرب باختلاف مواقعها من الجزيرة العربية ، فكان أسرعها تعرباً العراق والجزيرة والشام ، وكان تعربها جميعاً قد بدأ في الجاهلية ، فأتمته الفتوح العربية سريعاً ، فإذا اللغات السامية التي كانت تنتشر في تلك البيئات وعلى رأسها السريانية ترك مكانها من ألسنة الناس وتنحاز إلى الأديرة وإلى بيئة الصابئة في حران وبعض المراكز الثقافية القديمة كمدسة جنديسابور . وتعرب مصر وبلاد المغرب تدريجاً .

وقد أقبل الفرس على التعرب إقبالا منقطع النظير ، فقد أكبوا على تعلم العربية حتى أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبير عن عقولهم ووجداناتهم بحيث لا نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم ، فهم يقبلون على درس الشريعة الإسلامية ويتألق فيها نجم أبي حنيفة وتلاميذه ، وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ما هو معروف عن سيويه وهم يقبلون على إحسان صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع ، وهم يقبلون على الشعر بحيث يصبح أعلامه النابيهون منهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس .

وليس معنى ذلك أن جميع أصحاب اللغات القديمة هجروا لغاتهم تماماً ، فقد ظلت من ذلك بقايا حتى في أكثر البيئات تعرباً أي في العراق والشام ، مما نشأ عنه سقوط بعض كلمات نبطية وآرامية إلى العربية^(١) . وأهل لغة قديمة

بكثرة ما كان يدخل في أشعاره من ألفاظ نبطية هو الطرماح : انظر الموشح للمرزبانى ص ٢٠٨ .

(١) انظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١٧٦/٥
وقد اشتهر في أواخر عصر بني أمية شاعر عربي

ظلت حية هي الفارسية ، لا بين سكان إيران فحسب ، بل أيضاً بين سكان الأمصار في العراق ، إذ زحفت إليها منذ عصر نبي أمية جموع كبيرة منهم ، وازداد زحفهم في هذا العصر الذي علا فيه سلطانهم . ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يرويه الجاحظ عن قاص^١ من قُصَّاص البصرة ووعاظها هو موسى الأسوارى إذ يقول : « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتتعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأى لسان هو أين^(١) . وكان كثير من العرب أنفسهم يتعلم الفارسية ويحسنها ، حتى لنها تدور في مجالسهم^(٢) ، وحتى لنها الأصمعي العربي القحَّ يفهم ما يجري منها على لسان بعض الفرس^(٣) . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها كانت تشيع على ألسنة كثيرين في الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة ، وبسبب من ذلك ولأنها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة ، وخاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس . ودخل العربية في هذا العصر بعض ألفاظ هندية وخاصة في أسماء النباتات والحيوانات من مثل الأبنوس والبيغاء والفلفل كما دخل بعض ألفاظ يونانية وخاصة ما اتصل بأسماء المقاييس والموازين والأمراض والأدوية من مثل القيراط والأوقية والقولنج .

ولم تُفسد هذه الكلمات الدخيلة العربية فقد كانت تأتي على هامشها ، وكثيراً ما كانت تعرَّب بحيث تتفق واللسان العربي ، وقد أُلِف العرب فيها مصنفات كثيرة تمييزاً لها وتعريفاً بها . ولم يكونوا يعمدون دائماً إلى استعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التي لم يكونوا يعرفونها ، بل كانوا يحاولون في أحوال كثيرة أن يضعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة إما عن طريق الاشتقاق وإما عن طريق التوسع في مدلولاتها ومعانيها القديمة . وبذلك اتسعت العربية وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقوماتها ومشخصاتها وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية .

(٢) أغاني (طبع دارالكتب) ٧/٥ .

(١) البيان والتبيين ١/٣٦٨ .
(٢) أغاني (طبعة السامى) ١٧/١٩ .

وحتى أخذ يفشو اللحن ولكن علماء اللغة كانوا بالمرصاد لكل من يلحن ، حتى لكأنهم كانوا يعدون اللحن لإحدى الكبائر ، وقد مضوا يسجلون على كل عالم وكل كاتب وكل شاعر ما تعثر فيه أحياناً من بعض اللحن . وجمع من ذلك « يوهان فك » في كتابه « العربية » مادة واسعة ، ومن ينعم النظر فيها يعرف أن اللحن لم يكن متفشيًا في أوساط المثقفين بل كان محدوداً جداً ، إذ مبلغ ما يضاف إلى أي شخص لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة إلا في النادر . وقد وقف يوهان فك طويلاً عندما ساقه الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » من لُكنات بعض الأعاجم ، وهي لُكنات مردّها إلى ما كان يجده نفر منهم من صعوبة في التكيف العضوي لمخارج الحروف العربية التي لا توجد في لغاتهم ، إذ كان منهم من يبدل الراء غيناً والزاي والثاء والشين سيناً والعين همزة والقاف كافاً أو طاء والجيم زايماً أو ذالاً والحاء هاء والصاد سيناً والطاء زايماً واللام ياء . وهذه اللُكنات إنما كانت تشيع على السنة العامة وقلما سقط منها شيء إلى السنة الفصحاء من العرب والموالي . وهذا نفسه يلاحظ في اللحن فإنه إنما كان يشيع في أوساط العامة ، وكان علماء اللغة يعنون بتنقية العربية وتصفيتها من الشوائب ، وفي ذلك ألف الكسائي كتابه في لحن العامة ، وهو مطبوع .

وما لا ريب فيه أن الفصحى كانت المثل الأعلى للناس في هذا العصر ، وخاصة الطبقة المثقفة ، وكان أهم ما دعمها وبسط سلطانها القرآن الكريم ، وحتى الشعوبيون والزنادقة اتخذوها لسانهم وأداتهم في التعبير ولم يحاولوا الخروج على قوانينها . وقد عاش علماء اللغة يحوطنونها ويحرسونها حراسة حفظت لها كل مقوماتها الاشتقاقية والتعبيرية والنحوية ومكنتها من الثبات والجريان على الألسنة لا في الأوساط الثقافية والأدبية فحسب ، بل أيضاً في أوساط العامة وبين العناصر التي لم تدخل في الإسلام مما أحالها وعاء كبيراً لكل ما لقينه من ثقافات في البيئات التي ذكرناها ومن معارف مختلفة متباينة ، وهي معارف امتزجت فيها منذ فتوح الإسكندر عناصر شرقية بعناصر إغريقية مكونة ما يسمى باسم الثقافة الهيلينية ، ومعروف أن فتوحه شملت مصر وليبيا والشام والعراق وإيران وخراسان وأفغانستان وشرقاً من بلاد الهند ، وقد عنى بنشر الثقافة الإغريقية في كل البلدان التي افتتحها ومضى خلفاؤه الذين

ورثوا ملكه يستنون بعمله . وبذلك امتزجت هذه الثقافة بثقافات الأمم المفتوحة ، وتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية وغير الفلكية . وكانت تقوم على هذه الثقافة الهيلينية قبل الإسلام مدارس مختلفة في الإسكندرية وقيصرية وأنطاكية والرها ونصيبين وحرّان وجنّديسابور ، فاتصلت العربية بكل هذا التراث وأخذت تعمل على المزج بينه وبين معارف العرب وآدابهم ، واتخذ هذا المزج صوراً كثيرة ، منها الترجمة ونقل علوم الأرائل وسنعرض لذلك في موضع آخر . ومنها تأثر العرب بالمعارف العملية التطبيقية عند الأجانب مما اضطرروا إلى الوقوف عليه في إنشاء المدن وضبط الدواوين وعمل الأساطيل وإعداد الجيوش والنهوض بالزراعة والتجارة . ومنها جدالهم لأصحاب الملل والنحل ، فقد كانوا ناشرين للدين الإسلامي ، فاضطرت المجادلات والمناظرات بينهم وبين البوذيين والمجوس والصابئة والنصارى واليهود وغيرهم ، وتعرفوا على عقائدهم ونحلهم . وأعمق من ذلك تحول أصحاب النحل والديانات المختلفة إلى الإسلام ، فقد تحولوا إليه بترائهم العقيدى ، بل بكل تراث آبائهم الثقافى .

ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ألوان الثقافات العامة التى كانت مبثوثة في البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظمة لسبب طبيعى وهو أن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً ، فكان طبيعياً أن تتحول معهم ثقافتهم وأن لا تنتظر حتى ينظّم لها النقل والترجمة . وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية واليونانية . وكانت الثقافة الهندية تصل العرب حينئذ عن طريقين : طريق الفرس وما سقط إليهم منها من قديم وطريق من دخلوا منهم حديثاً في الإسلام واندججوا في عرب العراق ، ومعروف أن جمهور الهنود وثيون يدينون بالبودية ، ومنهم براهمة^(١) ينكرون النبرات ودهريون لا يؤمنون بشىء سوى الدهر وسُمنية لا يؤمنون بشىء سوى الحس وقد ناظرهم قديماً جهنم^(٢) ابن صفوان ، وظل المعتزلة — على نحو ما يصورهم الجاحظ في كتابه الحيوان —

(٢) النية والأمل لابن المرتضى ص ٢١ .

(١) انظر في نحل الهند الشهرستاني ص ٤٤٤
ما بعدها .

يردون عليهم رداً عنيفاً^(١) ، ونعجب أن نرى عربياً أزدباً يعتنق عقيدة السَّمْنِيَّة^(٢) . وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح إيماناً شديداً حتى ليقول البيروني : « كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية ، فمن لم ينتحلها لم يك منها ولم يعد من جملتها»^(٣) . إذ استقر بينهم أن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد تطلب بذلك الكمال ، وما تزال تطلبه حتى تستوفي شرف ذاتها وتستغنى عن الاتصال بالأبدان ، وحينئذ يتحد العقل والعامل والمعقول ويصبحون جميعاً شيئاً واحداً . وقد سقطت هذه العقيدة – كما مر بنا في غير هذا الموضوع – إلى ماني والمناوية كما سقطت إلى بعض الشيعة القائلين بتناسخ النور الإلهي في الأئمة ، وأيضاً فإنها سقطت في هذا العصر إلى الحرمية ، وكان يؤمن بها أحمد بن حائط المتكلم صاحب فرقة الحائطية ويدافع عنها دفاعاً شديداً^(٤) . وكان يشيع على السنة عامتهم بعض قصصهم كقصّة السندباد . وقد تأثرت المناوية – على نحو ما أشرنا في الفصل السابق – بزهد البوذيين وطرقهم في النسك وتحريمهم لذبح الحيوان .

وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثراً في المحيط العربي لهذا العصر ، فقد دخل جمهور الفرس في الإسلام واقتبس العرب كثيراً من صورة حياتهم في المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم والحشم ، وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم كما أسلفنا ، ويحكون عنهم أقاصيصهم عن رسم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكمائهم . وكانت المجوسية لانزال حية بمعابد نيرانها ونحلها المختلفة من زرادشتية ومناوية ومزدكية وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من ثنوية أو إيمان بأن للعالم إلهين : إلهاً للنور وإلهاً للظلمة . ونعجب إذ نجد بعض العرب يصبح ثنويّاً مانويّاً على نحو ما كان صالح بن عبد القدوس . وكان تأثير المزدكية في المجتمع أشد عمقاً ، بما كانت تدعو إليه من التحلل الخلقى والعكوف على اللهو والمجون والاندفاع في إباحية مسرفة .

ولم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلا اختلاطاً محدوداً عن طريق الرقيق البيزنطي الذي كان يقع في الأسر أو يباع في أسواق النخاسة ، وكان تأثيره في

(١) انظر مثلا الحيوان ٧٠/٤ وما بعدها . (٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢٤ .
(٣) أغاني (طبع دار الكتب) ١٤٧/٣ . (٤) الشهرستاني ص ٤٢ .

المجال العربي محدوداً ، وحقاً أن الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثرت في الفكر العباسي ، ولكن عن طريق النقل والترجمة لا عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب ، وأيضاً عن طريق ما ألقته من ظلال على الثقافة الهيلينية الشعبية العامة التي كانت سائدة في المنطقة والتي حملت في أطوائها معارف الكلدانيين والصابئة عن النجوم والكواكب ومعارف الشآمين والمصريين عن شئون الزراعة وما كان يتداول هنا وهناك من أفاصيص عن السحر والعرافة وما يجري في كل ذلك من إيمان بالغيبات ومن نزعات روحية عميقة .

وكان يشارك في الحياة اليومية أصحاب الديانتين النصرانية واليهودية ، ويصور لنا الجاحظ في رسالته « الرد^(١) على النصارى » موقف العرب منهم حينئذ ومن اليهود فيقول إنهم كانوا أقرب من اليهود إلى العرب مودة وأسلم صدوراً ، فإن اليهود طووا قلوبهم على عداوة الإسلام ورسوله الكريم منذ مقامه بين ظهرانهم في يثرب ، على حين آوى نصارى الحبشة من هاجروا إليهم من أصحاب الرسول فراراً من اضطهاد قريش ومدّوا إليهم يد البرّ والعون . ويقول إن نصارى بغداد كانوا ينهضون بالصناعات المربحة مندمجين في حياة الخلفاء والرعية ، بينما كان اليهود يحترفون الصناعات الرذيلة الحقيرة ، فن النصارى كتاب السلاطين وأطباء الأشراف والعطارون والصبّارة ، أما اليهود فنهم الصباغون والدباغون والقصابون والشعّابون ، وقد رسخ في ذهن العرب أنهم أقدّر الأمم . ونرى نقرأ منهم يسلمون منذ عهد الإسلام الأول ويذيعون كثيراً من الإسرائيليات التي دخلت في تفسير القرآن الكريم على نحو ما هو معروف عن كعب الأحبار وهب بن منبه ، وقد استغلها القصاص في وعظهم للإمامة استغلالاً واسعاً ، وكان منهم من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه ، ففضى يسر عداوته للإسلام ويحاول أن يهدمه هدماً بما يدخل عليه من عقائد منحرفة وبما يثير من الفتن بين أصحابه مثل عبد الله بن سبأ ، وقد لعب دوراً واسعاً في فتنة عثمان والتأليب عليه وإحداث أول فرقة في الإسلام ، حتى إذا حدثت أخذ يلقي في روع بعض الضعفاء والعوام أن علي بن أبي طالب فوق البشر وأن روح الرسول حلّت فيه ، ولما مات قال إنه اختفى وسيعود . وبذلك وضع نواة

(١) انظر هذه الرسالة في ثلاث رسائل للجاحظ .

التشيع الباطن ، بل وضع نواة غلاة الشيعة جميعاً ورافضتهم الذين طالما حاجَّهم وجادلهم المعتزلة في هذا العصر . وكان له خلفاء كثيرون من جنسه مضوا يفسدون على شاكلة إفساده ، بل لقد كان ممن ظلوا على يهوديتهم مَنْ يخالطون العرب في مجالسهم^(١) ويوردون عليهم بعض معتقداتهم الفاسدة من مثل التشبيه على الذات العلية^(٢) ، حتى ليصبح هناك قوم معروفون باسم المشبهة من الرافضة وغيرهم . وقد عُنِيَ المعتزلة طويلاً بتسفيه أحلامهم ونقض ما زعموه من التشبيه على الله نقضاً . وكانوا يقولون إن التوراة محدثة ومخلوقة وأكبر الظن أن المعتزلة أو نفرأ منهم نقلوا عنهم هذه الفكرة فقالوا إن القرآن مخلوق^(٣) . وإنما يدفعا إلى هذا الرأي أنه كان من رعوس القائلين بها ثمامة بن أشرس وبشر بن غياث المريسي المتكلم ، وكان غياث يهودياً يسكن بغداد وأسلم ابنه واشتغل بعلم الكلام والقول بخلق القرآن^(٤) وما زال هو وثمامة بالمأمون حتى اعتنق هذا القول وجعله محنة وبلاء على الفقهاء والعلماء . وهو بلاء جَرَّ إلى صدع متفاقم بين المعتزلة وأهل السنة حتى لقد قضى قضاء مبرماً على ما كان للأولين من مجد في العصر العباسي الأول .

وقد شكنا الجاحظ - على نحو ما مر بنا في الفصل السابق - من متكلمي النصارى وأطبائهم ومنجميهم لنقلهم إلى العربية كتب المنانية والديبانية والمريقونية المارقة ، مما أفسدوا به عقول العوام ، ولكن من الحق أن النصارى لم يكونوا يبطنون للإسلام من العداوة ما أبطنه اليهود على نحو ما لاحظ ذلك الجاحظ نفسه ، وكان المسلمون يَتَمَرُّونهم ويعاملونهم معاملة كريمة ، وقد دخل منهم جمجور غفير في الإسلام وامتزج العرب بهم وأكثروا من تسرى جواريههم مما هياً للقاح واسع بين العناصر الإسلامية والمسيحية في المجتمع العباسي ، ولا نقصد اللقاح الدموي فحسب ، بل نقصد أيضاً اللقاح الثقافي ، إذ نشأ جيل كبير أمهاته من المسيحيات روميات وغير روميات ، وطبيعي أن يحمل هذا الجيل عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً

(٣) انظر ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٣٣٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ٢/٢٢٨ وقارن ب

١٨٧/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩ .

(٢) انظر الشهرستاني ص ٦٤ - ٦٥ ، ٧٧

حيث يقول إن التشبيه في اليهود طابع حتى قالوا في الله : اشتكت عيناه فعداته (فزارته) الملائكة .

من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن ، ونرى أحد المتكلمين وهو أحمد بن حائظ الذي ذكرناه منذ قليل يزعم أن المسيح تدرَّع بالجسد الجسماني وأنه الكلمة القديمة المحسدة (١) .

وكان للأناجيل تأثير - من بعض الوجوه - فقد كانوا يقرءونها ويستظهرون كثيراً من كلام المسيح وأقواله في وعظهم ، وفي كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والبيان والتبيين للجاحظ من ذلك مادة وافرة ، وقد أشرنا في غير هذا الموضع إلى ما كان من تأثير الرهبان المبشرين في العالم الإسلامي من أثر عام في زهد الزهاد حينئذ ، إذ كانوا يرون تقشفهم وخلوصهم للعبادة والنسك . وأشرنا أيضاً في غير هذا الموضع إلى ما كانت تقدمه الأديرة للمجان والخلعاء من خمور معتقة . وما لا شك فيه أن المسلمين اندمجوا في النصراني لهذا العصر اندماجاً واسعاً ، وهو اندماج جعلهم يحتفلون بأعيادهم الدينية ويتخذون منهم كتَّاب الدواوين والأطباء والمنجمين ونقله علوم الأوائل ، كما جعلهم يملتون قلوبهم أمناً ورضاً دون أى عسف أو ظلم .

الحركة العلمية

أدركى الإسلام جذوة المعرفة في نفوس العرب إذ دفعهم دفعاً قوياً إلى العلم والتعلم ، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها ، وحتى أخذ العرب يلمسون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة ، وقد مضوا في هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم ، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة ، وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعلم في الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم وشيئاً من الحساب وبعض الأشعار والأمثال (٢) ، وكان بعض معلمى هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضاً السنن والفرائض والنحو والعروض (٣) . وكانوا يؤثرون في تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة

(٣) البيان والتبيين ٢/٢١٩ .

(١) الشهرستاني ص ٤٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٨٠ .

النور^(١)، وورد الجاحظ وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب^(٢) من مثل أبي البيداء الرياحى اللغوى ومحمد بن السكن المحدث وأبى عبد الرحمن السلمى المقرئ وأبى صالح الإخبارى . وخص الجاحظ هؤلاء المعلمين برسالة ملاًها بنوادهم^(٣) ، مما كان سبباً فى أن تدور شخصية معلم الكتتاب بين الشخصيات المضحكة فى الأدب العربى ، ومن كثر التندير عليه فى هذا العصر منهم علقمة ابن أبى علقمة النحوى الذى كان يتقعر فى كلامه مكرراً فيه من الغريب الشاذ وكان يعنى فى مكتبته بتعليم الناشئة العربية والنحو والعروض ومات فى خلافة المنصور^(٤) وقد ألف بعض الأدياء رسالة تجمع نوادره^(٥)

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادى أو من الأبنوس يكتبون فيها دروسهم وكلما فرغوا من درس محوه منها وأثبتوا مكانه درساً آخر . وكان معلومهم يؤذونهم بالجلد والضرب والحبس ، وفى أخبار إبراهيم الموصلى أنه « أسلم إلى الكتتاب فكان لا يتعلم شيئاً ، وكان لا يزال يضرب ويحبس ولا يتشجع ذلك فيه ، فهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء^(٦) » ويذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بنى سليم ابن رآه مسناً كان يدع الكتتاب ويلعب بالكلاب ، فكتب أبوه إلى معلمه^(٧) :

ترك الصلاة لا كلب يلهو بها طلب الهراش مع الغواة الرجس
 فاذا خلوت فعضه بملامة أو عظه موعظة الأديب الأكيس
 وإذا هممت بضربه فيدرة وإذا ضربت بها ثلاثاً فاحبس
 وكان هؤلاء المعلمون يتقاضون من الناشئة أجوراً زهيدة ، لا تتجاوز أحياناً بعض رُغفان من الخبز كانت تختلف أحجامها وأنواعها باختلاف أحوال آبائهم غنى وفقراً ، حتى لقد ضربت برغفان المعلم الأمثال على شدة الاختلاف والتفاوت . وكان بجانب معلمى أولاد العامة فى الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة ، كان منهم اللغوى والإخبارى والفقهاء والمحدث والمقرئ ، وكانوا أحسن حالا من معلمى

(٤) المعارف ص ٢٧٢ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٤٣٥ .

(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥٧/٥ .

(٧) الحيوان ٨٤/٢ وانظر عيون الأخبار

. ١٦٧/٢

(١) البيان والتبيين ١/١٨١ .

(٢) انظر البيان والتبيين ١/٢٥١ والمعارف

لابن قتيبة (طبعة وستفيلد) ص ٢٧١ .

(٣) انظر قطعاً من هذه الرسالة بين رسائل

الجاحظ المطبوعة على هامش الكامل للبرد .

أبناء العامة ، على أن الجاحظ يقول في جمهورهم : « يكون الرجل نحوياً عروضيّاً وقسّاماً فترضيّاً وحسن الكتاب جيد الحساب حافظاً للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما »^(١) . وهذا إنما يصدق على من كان منهم يعلم أبناء الطبقة الوسطى ، أما من كان يعلم أبناء الخلفاء والوزراء والبيت العباسي والقواد والسّراة فقد كانت تُفرض لهم رواتب كبيرة ، جعلتهم يعيشون في خفقنض من العيش وسعة من الرزق ، نذكر من بينهم المفضل الضبي معلم المهدي وله اختار مجموعته الشعرية الملقبة بالفضليات ، والكسائي معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون ، وقطرب مؤدب الأمين وأبناء أبي دلف العجلي قائد المأمون المشهور ، وعلى بن المبارك الأحمر أحد مؤدبي الأمين ويقال إنه أعطاه يوماً ثلاثمائة ألف درهم^(٢) ، ومنهم اليزيدي يحيى بن المبارك مؤدب أبناء يزيد بن المنصور الحميري خال المهدي ومن أجل ذلك لقب باليزيدي ، ومنهم الفراء معلم أبناء المأمون ، وأبو عبيد القاسم بن سلام مؤدب أبناء هرثة قائد الرشيد والمأمون .

وامتازت في هذا العصر البصرة بسوق باديتها المعروف باسم المرْبَدِ ، وكان منهلاً لشباب البصرة يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب والتحدث إليهم تمريناً لألستهم وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب السليقة العربية المصفّاة من شوائب العجمة . وكانوا يكتبون ما يسمعونه منهم من طرائف الشعر ، على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبي نواس وأنه كان يقدو على المربد بألواحه للقاء الأعراب^(٣) . وكان من شباب الشعراء من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصيلة على نحو ما هو معروف عن بشار^(٤) .

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى ، فلم تكن بيوتاً للعبادة فحسب ، بل كانت أيضاً معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلقون حول الأساتذة ، يكتبون ما يلقونه أو يملونه ، وكان الأستاذ يستند عادة إلى أسطوانة في المسجد ، ثم يأخذ في إلقاء محاضراته أو إملائها ، وفي الحلقات الكبيرة كان يردّد مستملاً كلامه حتى يسمعه ويكتبه البعيدون عنه في الحلقة . وكان لكل فرع من المعرفة حلقة أو حلقاته

(٣) الحيوان ٢٣٩/٦ .
(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ١٥٠/٣ .

(١) البيان والتبيين ٤٠٣/١ .
(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي
(نشر الخالفي) ص ١٤٧ .

الخاصة ، فحلقة لفيقه وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمفسر وحلقة للغوى وحلقة لنحوى وحلقة لمتكلم ، وكانت حلقة الفقهاء من أكبر الحلقات إذ كان يقصدهم طلاب الفقه ومن يريدون أن يتولوا منصب القضاء أو الحسبة ، وكذلك كانت حلقة المتكلمين لما يجرى فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل . وكان يتحلَّق كثيرون في حلقات اللغويين والنحاة، ويقال إنه كان يحضر حلقة ابن الأعرابي الكوفي زهاء مائة شخص (١) ، وكثيراً ما كانت تدور في تلك الحلقات هي الأخرى مناظرات بين أصحابها على نحو ما يُروى عن الأخفش من أنه تعرض للكسائي في حلقة وسأله عن مائة مسألة محاوراً له ومناقشاً مناقشات مستفيضة (٢) . وكانت هناك حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم (٣) .

وهذه الحلقات الكثيرة التي لم يكن يشترط للحضور فيها أى شرط سوى الرغبة في السماع والتي كانت مباحة لأى وارد كى يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة هيأت لظاهرتين كبيرتين ، أما أولاها فكثره العلماء المتخصصين في كل علم وفن ، حتى ليُروى أن النضر بن شُمَيْل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيّعه نحو ثلاثة آلاف شخص بين محدث ونحوى ولغوى وعروضى وإخبارى (٤) ، ولا بد أنه كان وراء هذا العدد الضخم كثيرون تخلفوا عن توديعه وتشيعه . وإذا كانت البصرة قد اشتملت على هذا العدد الوفير من العلماء فإنه مما لا شك فيه أن بغداد كانت تشتمل منهم على أضعاف له مضاعفة .

وتلك هي الظاهرة الأولى ، أما الظاهرة الثانية فهي نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوعوا معارفهم تنوعاً واسعاً ، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة ، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون الصحفيين المعاصرين الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثاً شائقاً في كل صور المعرفة والثقافة . وكان يطلق على هذه الطائفة في البصرة

(١) إنباه للرواة على أنباه النحاة (طبعة دار

الكتب المصرية) ١٣٠/٣

(٢) إنباه الرواة ٣٧/٢ ومعجم الأدباء

٢٢٨/١١

(٣) الموشح ص ٢٨٩ .

(٤) معجم الأدباء ٢٣٨/١٩

اسم المسجدين ، وكان لهم حلقات خاصة بهم في المساجد ، يسوقون فيها فتوناً من الجدال والحوار في أي شيء يعنّ لهم ، وقد عرض الجاحظ في كتاب البخلاء صورة من جدالهم تناولوا فيها الاقتصاد في النفقة والتميز للمال (١) . وكانت لهم سوق نافقة في مجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم ، إذ كانوا يستطيعون أن يطرفوهم بالأحاديث الطلية ويروحوها عنهم في ساعات صفوهم وغضبهم بما يوردون على سمعهم من طرائف الأخبار والمعارف . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن ظهور هذه الطائفة وما حظيت به في المجتمع العباسي هو الذي جعل الجاحظ وغيره يحاولون كتبهم الأدبية إلى دوائر معارف واسعة ، بل لقد استقر في الأذهان أن الأدب هو الأخذ من كل علم وفن بطرف .

وإذا كان الخلفاء ووزراؤهم قد أغدقوا على هذه الطائفة كثيراً ، فإنهم لم يحرموا طائفة العلماء المتخصصين ، بل كثيراً ما كانوا يصفون عليهم عطاياهم الجزيلة ، وجاراهم في ذلك الولاة وكبار القواد ، وكان أول من سنّ ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدي فإنه أكثر من مكافأته للعلماء كثرة جعلتهم يشدون إليه الرحال من كل بلدة (٢) ، واحتذاه في ذلك ابنه الرشيد ، ويقال إنه وصل الأصمعي يوماً بمائة ألف درهم (٣) وكان من المحظوظين لدى البرامكة ، ويروى أن جعفر البرمكي وصله بخمسمائة ألف (٤) . وكان المأمون سحابة منهلة على العلماء والمتكلمين . وقد أعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميراً بمرو خمسين ألف درهم (٥) . ويروى أن طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وصل أبا عبيد القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين ألفاً ، وأجرى عليه ابنه عبد الله عشرة آلاف درهم في كل شهر (٦) .

وليس من شك في أن هذا الصنيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلمية بالمساجد ، إذ كان من يبرز نجمه في حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء ، فإذا العطايا تسبّغ عليه وإذا الرواتب تُفرض له شهرياً . وحقاً كان بين علماء الفقه والحديث من لا يبغون بعلمهم وتعليمهم سوى الثواب من الله ، ولعله من أجل ذلك شاع بينهم التكسب من الحرف

(١) كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصري) ص ٢٤ .
 (٢) إنباه الرواة ٢/٣٤ .
 (٣) طبرى ٦/٥٤١ .
 (٤) إنباه الرواة ٢/١٩٩ - ٢٠١ .
 (٥) إنباه الرواة ٣/٣٤٩ وما بعدها .
 (٦) إنباه الرواة ٣/١٦ وما بعدها .

أو التجارة كأبى حنيفة وكان بزّازاً ، غير أن الكثرة وخاصة من علماء اللغة وأصحاب العلوم الدنيوية كانوا يتخذون علمهم حرفة لهم ومتجرأ ، بل لقد كان متجرأ رابحاً .

وكان من أهم الأسباب في بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة استخدام الورق ، إذ أخذ يعم منذ مفتح هذا العصر وكانوا قبل ذلك يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى . ولم يلبث الفضل بن يحيى البرمكى أن أنشأ في عهد الرشيد مصنعاً ببغداد للورق ، ففشت الكتابة فيه لخفته وغلبت على الكتابة في الجلود والقراطيس . وكان الإملاء حينئذ أعلى مراتب التعليم ولكن لم تلبث أن ظهرت المصنفات الكثيرة واحتيج معها إلى النسخ ، فاتسعت صناعة الوراقة . وهى تحل في هذا العصر محل الطباعة في عصرنا الحديث ، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها ، فاتخذوا لأنفسهم وراقين ينقلون عنهم كتبهم ويذيعونها في الناس مثل دماذ أبى غسان وراق^(١) أبى عبيدة . وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات ، وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هى دار الحكمة وعُنت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التى تحمل كنوز الثقافات الأجنبية ، ولا ريب في أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة .

وقد أخذ كثيرون من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات ، وكانوا يوظفون فيها بعض الوراقين للنسخ : من ذلك مكتبة إسحق بن سليمان العباسى وكانت تمتلئ بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر^(٢) ، وأضح منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكى ويقال إنه لم يكن في مكتبته كتاب إلا وله ثلاث نسخ^(٣) ، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخماً مكتبة الواقدى المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٢٠٧ وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب^(٤) وكان له مملوكان يكتبان له ليلاً ونهاراً^(٥) .

ولعل في ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن الكتب أصبحت مادة أساسية

(٤) معجم الأدباء ٢٨١/١٨ .

(٥) الفهرست ص ١٤٤ .

(١) الفهرست ص ٨١ .

(٢) الحيوان ٦١/١ .

(٣) الحيوان ٦٠/١ .

للمعرفة ، إذ كانت تسجّل أمهات العلم وأصوله بما لعله يفضل تلقيه وأخذه عن العلماء ، وفي ذلك يقول الجاحظ : « وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال وبالحرى أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً (قاضياً) على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان » (١) .

ولم تكن الكتب تُعدّ لهذا التحصيل السريع في الفقه وحده ، بل كانت تعدّ لذلك في جميع فروع العلم والمعرفة ، فطبيعي أن يقبل عليها الناس إقبالا شديداً لما تجمع لهم في كل فن وكل علم من مادته الغزيرة المنظمة المرتبة ، بل لقد أصبحت الأداة الطيبة التي تسوق لهم المعرفة وألوان الثقافة سوقاً وهم يكبّون على هذه الأداة أو هذه الوسيلة السهلة متففين عليها كل ما يستطيعون من أموال مؤمنين بأن « من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب الذّ عند من إنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيعاً ، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله » (٢) .

وأنشأ بعض الوراقين لهم دكاكين كبيرة ملئوها بالكتب يتجرون فيها ، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين لا ليشتري منها فحسب ، بل ليقرأ فيها ما لذّ وطاب من صنوف الآداب نظير أجر بسيط يتقاضاه منه صاحبها . وبلغ من عناية الوراقين بعملهم أن موّه بعضهم خطوطه بالذهب ، ويذكر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون في كتبهم تأنقاً شديداً (٣) وكان بعض السراة يطلب هذه الأناقة المسرفة حتى في كتب المزل والفكاهة (٤) .

ولم تكن الكتب والمساجد كل ما هياً لازدهار الحركة العلمية حينئذ ، فقد هياً لها أيضاً مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء والسراة ، إذ تحولوا بها إلى ما يشبه ندوات علمية يتناظر فيها العلماء من كل صنف ، على نحو ما يروى من مناظرة

(٣) نفس المصدر والصفحة وما بعدها .

(٤) الحيوان ١/٦١ .

(١) الحيوان ١/٨٧ .

(٢) الحيوان ١/٥٥ .

الكسائي الكوفي واليزيدي البصري بين يدي المهدي^(١) وما يروى من مناظرة الكسائي وسيبويه بين يدي الرشيد أو بين يدي يحيى بن خالد البرمكي^(٢) . وكانت مجالس البرامكة ندوات كبيرة للمتكلمين والمتفلسفين من كل نحلة يتجادلون فيها ويتحاورون في كل ما يعرض لهم من مسائل ، وفي ذلك يقول المسعودي : « كان يحيى بن خالد البرمكي ذا بحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل ، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده : قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفي والحركة والسكون والمماسّة والمباينة والوجود والعدم والجوهر والطفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتجوير والكمية والكيف والمضاف والإمامة أنصتُ هي أم اختيار وسائر ما توردونه من الكلام في الأصول والفروع فقولوا الآن في العشق على غير منازعة ، وليورد كل منكم ما سنع له فيه وخطر بياله »^(٣) ويورد المسعودي أطرافاً من كلامهم وحوارهم في العشق تصور كيف كانوا يفرعون الأفكار ويستنبطونها ويشعّبونها في الموضوعات المختلفة التي كانت تمس مسائل الفلسفة وعلم الكلام ومذاهب الشيعة والسنة في الإمامة .

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة ، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، فضى يحول مجالسه في دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة وفي ذلك يقول يحيى بن أكرم : « أمرني المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم^(٤) » ويمضى ابن أكرم فيقول : إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إلى المأمون أن أنوع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس . ويعرض طيفور في كتابه بغداد كثيراً من هذه المجالس وما طُرِح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة . ويصور المسعودي ما عاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التي غدت كأنها مجمع علمي كبير ، فيقول : « قرب المأمون إليه كثيراً

(٣) مروج الذهب ٢/٢٨٦ .

(٤) بغداد لطيفور ص ٤٥ .

(١) مجالس العلماء للزجاجي ص ٢٨٨ .

(٢) إنباه الرواة ٢/٢٧١ .

من الجدلّيين والنظّارين كأبي الهذيل العلاف وأبي إسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن وافقهما ونخالفهما (يريد من المعتزلة وغيرهم) وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق (الرواتب) فرغب الناس في صنعة النظر وتعلموا البحث والجدل ، ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله « (١) .

وقد كُفّلت الحرية العقلية في هذا المجلس أو هذا المجمع إلى أبعد غاية ممكنة ، بحيث كان كل رأى يُعْرَضُ للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة (٢) . وما لا شك فيه أن المجمع كان يرتبط حينئذ بالإسلام ارتباطاً وثيقاً في جميع شؤنه الروحية والاجتماعية ، ولكن كأنما أصبح سلطان العقل فوق سلطان الدين ، وكل ذلك باعثة الحقيقي رقى الحياة العقلية في هذا العصر ، فإذا كل شيء يناقش في حرية ، وإذا كل شيء يعرض على بساط البحث والجدل .

وكان وراء هذا المجلس الكبير ومجلس يحيى بن خالد البرمكي مجالس صغرى ما يزال يجتمع فيها العلماء ويتجادلون ويتناظرون ، من ذلك مجلس أيوب بن جعفر ابن أبي جعفر المنصور ، وقد اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شمير المتكلم ، وكانت في أبي شمير رزاة تجعله لا يحرك يديه ولا منكبيه إذا جادل أو ناظر ، فاضطره النظام بما أورد عليه من الحجج وأثقل عليه من البراهين في مسألة ناظره فيها أن يحرك يديه وأن يجبو إليه جبواً يريد أن يسكته بيده بعد أن أعجزه أن يسكته بالأدلة العقلية (٣) ، ومن ذلك مجلس أزدى بالبصرة وفيه يقول صاحب الأغاني : « كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام : عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبنار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء ورجل من الأزد ، فكانوا يجتمعون في مجلس الأزدى ويختصمون عنده » (٤) ويتحدث صاحب النجوم الزاهرة عن مجلس آخر في نفس البلدة ، فيقول : « كان يجتمع بالبصرة عشرة في مجلس لا يُعرَفُ مثلهم : الخليل بن أحمد صاحب العروض سنّي ، والسيد ابن محمد الحميري الشاعر رافضي وصالح بن عبد القدوس ثنوي ، وسفيان بن

(١) مروج الذهب ٤/٢٤٥ .

(٢) الحيوان ٤/٤٤٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٩١ .

(٤) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/١٤٦ .

مجامع صُغْرَى ، وبشار بن برد خليف ماجن ، وحمام عجرد زنديق ، وابن رأس
الجلالوت الشاعر يهودى ، وابن نظير النصرانى متكلم ، وعمرو بن أخت الموبد
مجوسى ، وابن سنان الحرّانى الشاعر صابئى ، فتناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً^(١) .

وواضح من هذين النصين كيف كان يلتقى أصحاب الملل والنحل والأهواء
المختلفة فى المجالس ، وكيف كانوا يثرون كثيراً من المسائل التى تتصل بأهوائهم
ونحلهم وملهمهم ويتحاورون فيها حواراً طويلاً . وكانت هناك مجالس أخرى
للمتفلسفة والمتكلمين ، ويقال إن مجلس يوحنا بن ماسويه « كان أعمر مجلس
بمدينة بغداد لمتكلم أو متكلم أو متفلسف إذ كان يجتمع فيه كل صنف من
أصناف أهل الأدب » وكان تلاميذه يقرءون عليه فى هذا المجلس كتب المنطق
لأرسطاطاليس وكتب جالينوس فى الطب^(٢) . وعلى شاكلة مجلسه مجلس حنين^(٣)
ابن إسحق ، ويقال إن المأمون رسم له على كل كتاب ينقله إلى العربية أن يأخذ وزنه
ذهباً . وكانت لابن أبى دؤاد المعتزلى مستشار المأمون والمعتمد والواثق ندوة كبيرة
يحضرها من كبار المترجمين والأطباء سلمويه وابن ماسويه وبختيشوع بن جبريل^(٤) .

ويخيل إلى الإنسان كأنما كانت أزواد المعرفة والثقافة ملقاة فى كل مكان
بأمصار العراق وهى حقاً كانت مطروحة فى الطرقات معرضة لكل الأيدي ،
فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكل الواردين ومثلها دكاكين الوراقين ،
ولا مصاريف تطلب للتعليم ، والتعليم مجاناً من حق الجميع . وكان لذلك آثار
بعيدة ، فإن جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر كانوا من أبناء العامة ، ويكفى
أن نعرف أن أعلام الشعر حينئذ وهم بشار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن
الوليد وأبو تمام كانوا جميعاً من الطبقة الدنيا فى الشعب فبشار كان أبوه طيئاناً
يضرب اللبن ، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف ومن هذا الغزل كانت تعوله ،
وأبو العتاهية كان فى صغره يحمل الخبز والحِرار على ظهره فى شوارع الكوفة يبيعهما
للناس ، وكان أبو مسلم حائكاً ، أما أبو تمام فكان أبوه عطاراً أو خمماراً ، ومن

(١) طبعة الخانجي ص ٢٤٩ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ١٣٩ .

(٣) الحيوان ١٢٣/٤ .

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢٩ .

(٢) عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة (طبعة

دار الفكر العربى بيروت) القسم الأول من الجزء

الثانى ص ١٢٤ وابن القفطى فى أخبار الحكماء

وراءهم من الشعراء كان جمهورهم من أبناء العامة ، وكذلك كان العلماء في جميع فروع العلم ، بل كان منهم من يجمع بين علمه وحرفته التي نشأ فيها مثل أبي أحمد التَّمَّار وشعيب القلال الذي كان يصنع فعلا القلال ، وهما من المتكلمين .

وأبعد من ذلك وأعرق أن بين أيدينا من النصوص ما يدل على أن أكثر العامة كانوا يصيبون حظوظاً مختلفة من الثقافة ، إذ لم يكن بينهم وبينها أى حجاب ولا أى حاجز ، بل لقد كانوا يروحون ويغدون عليها في المساجد ودكاكين الوراقين ، فنهل كلُّ ما نزع إليه من ينابيع المعرفة ، ومن خير ما يصور ذلك أن نرى الجاحظ يقول : « وسألت بعض العطارين من أصحابنا المعتزلة (١) » وكان العطارين كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم ولا بد أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف ، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك ، وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب ، بل من العامة أيضاً ، وبذلك نفهم قول صاحب النجوم الزاهرة عن النظام ونشاطه في الدعوة لآرائه الاعتزالية ببغداد إذ يقول : « وفي سنة ٢٢٠ ظهر لإبراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم في القدر ، فتبعه خلق (٢) » . ونرى الجاحظ في رسالته « الرد على النصارى » ينكر على العامة تعرضهم لمناقشة الملحدين في آرائهم الفاسدة لعدم إحاطتهم الدقيقة بتلك الآراء وما يتقضها نقضاً من الأدلة ، يقول : « ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » . ويهمننا ما تدل عليه شكواه من أن كل مسلم لعصره أصاب حظاً من طريقة المتكلمين في حجاج أصحاب الملل والنحل الفاسدة ، وبالمثل كانت العامة تصيب حظوظاً من الثقافة الدينية واللغوية والشعرية .

وليس من شك في أن ذلك كان ثمرة ازدهار الحركة العلمية في العصر ، فقد تغلغت المعرفة والثقافة في جميع الأوساط حتى في أوساط العامة ، وأصبحتنا غذاء لجميع العقول والقلوب ، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء كان جمهورها من أبناء هؤلاء العامة قادت الحركتين العلمية والأدبية قيادة خصبة باهرة ، إذ استطاعت أن تسيع كل ما نقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من عقولها

(٢) النجوم الزاهرة ٢/٣٣٤ .

(١) الحيوان ٥/٣٠٤ .

وقلوبها ما دعم حضارتنا العربية دعماً ، بما أحدثوا من علوم وبما كتبوا من آثار عقلية رائعة وآيات شعرية خالدة .

٣

علوم الأوائل : نقل ومشاركة

كان من أهم الأسباب التي دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الخصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة وبين ثقافات الأمم المغلوبة المستعربة وما طوى فيها من معارف وعلوم . وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر بنى أمية طريقتين : طريق المشافهة مع المستعربين وطريق النقل والترجمة وقد ظل الطريق الثاني ضيقاً زمن الأمويين ، إذ لا يعدو ما يُذكر من أنه تُرجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض كتب في الصنعة والطب والنجوم^(١) وأن عمر بن عبد العزيز أمر بترجمة كتيب في الطب لأهرن^(٢) بن أعين وأن كتاباً في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية تُرجم لشام^(٣) بن عبد الملك . وقد مضت بينات المستعربين العلمية تمارس نشاطها حينئذ ، وكانت تمثلها الأديرة وما بها من حلقات علمية من المدارس متناثرة في جنديسابور القريبة من البصرة وفي نصيبين وحرّان والرّها وأنطاكية والإسكندرية ، وكانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية ، كما كان يغلب عليها علماء السريان المسيحيين ، وكانوا قد نشطوا منذ القرن الرابع الميلادي في ترجمة الآثار اليونانية ، واستمر نشاطهم في هذه الترجمة محتدماً حتى القرن التاسع ، ومن أشهر مترجميهم قبل الإسلام يوحنا فيلوبونوس الإسكندري المعروف باسم يحيى النحوى وكان يعيش في القرن السادس الميلادي ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة في المنطق والطب والطبيعيات^(٤) . ومن أبرزهم في العصر الأموي سويرس سيپوخنت

(١) ابن النديم ص ٣٤٠ والبيان والتبيين

٣٢٨/١ .

(٢) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل

(نشر المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة) ص ٦١ .

(٣) انظر صفحات عن إيران لصادق

نشأت ومصطفى حجازي (نشر مكتبة الأنجلو

بالقاهرة) ص ٨١ .

(٤) انظر ابن أبي أصيبعة في الجزء الثاني من

القسم الأول (طبعة بيروت) ص ٦ وأخبار

الحكماء للقفطي ص ٢٣٢ وعلوم اليونان ورسائل

انتقالها إلى العرب لأول مرة (نشر مكتبة النهضة

المصرية) ص ٣٧ ، ١٢٣ .

أسقف دير قنسرين ويعقوب الرهاوى ، وله مصنف مهم فى النحو السريانى .
 وكان لمن خلفوهم فى العصر العباسى اليد الطولى فى ترجمة المصنفات اليونانية
 من لغتنا الأصلية التى كان كثير منهم يحدقها ومن لغتهم السريانية إلى اللغة
 العربية . وكان من أهم مراكزهم مدرسة جنديسابور القريبة من البصرة ، ولعلها
 لذلك سبقت الكوفة فى التعرف على الفلسفة اليونانية . وكان كثير من مصنفات
 اليونانيين قد ترجم إلى الفارسية ، فأدى الفرس بدلوهم لا فى نقل ثقافتهم فحسب ،
 بل أيضاً فى نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل ابن المقفع
 لمنطق أرسطو ، وقد نقل كيلة ودمنة الهندى الأصل إلى العربية ، وفى ذلك إشارة
 إلى ما كان فى الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نقلتهم^(١)
 وسرى عما قليل أن قوماً من مستعربى الهند شاركوا فى هذا النقل .

وزرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة
 وينفقون عليه الأموال الطائلة وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ،
 يتقدمهم فى ذلك المنصور وفيه يقول المسعودى : « كان أول خليفة قرَّب المنجمين
 وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى وأسلم على يديه - وهو أبو هؤلاء
 النوبختية - وإبراهيم الفزارى المنجم وعلى بن عيسى الإسطرلابى المنجم . وهو أول
 خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات العجمية إلى العربية ومنها كتاب كيلة
 ودمنة وكتاب السند هند ، وتُرجمت له كتب أرسططاليس من المنطقيات وغيرها ،
 وتُرجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب الأثرمطيقى وكتاب أوقليدس^(٢) » .
 واهتمام المنصور بالتنجيم يقترن بنوبخت الفارسى ويظهر أنه كان منجماً
 كبيراً ، إذ ينسب له وضع بعض الجداول^(٣) الفلكية ، وكذلك كان صاحبا وثانيتها
 وهو على بن عيسى رسالة فى الاسطرلاب - وهو آلة فلكية لرصد الكواكب -
 وقد نشرها لويس شيخو . ولم يكتف المنصور بما كان عند الفرس من علم الفلك
 والتنجيم ، فقد نُقل له كتاب السندهند الهندى وكتاب المجسطى اليونانى لبطليموس
 وهما فى علم الهيئة والنجوم وحركات الأفلاك والكواكب . ومعنى ذلك أن العرب

(١) كانت مدينة بلخ أهم مركز إيراني امتزجت فيه الثقافتان الفارسية والهندية ، وكان بها معبد النوبهار البرزى المشهور . انظر أوليرى ص ١٤٩ .

(٢) المسعودى ٢٤١/٤ .

(٣) علوم اليونان لأوليرى ص ٢١١ .

استمدوا في هذا العلم من الفرس والهند واليونان ولا بد أنهم استمدوا فيه أيضاً من الصابئة ورثة الكلدانيين في الفلك والتنجيم .

وصوراً نالينو أثر كتاب السندهند في علم الفلك العربي وكيف وصل إلى العرب ونُقل إلى العربية فقال : « إن وَقْدًا من الهند وَقَدَّ على أبي جعفر المنصور سنة ١٥٤ وفيهم رجل ماهر في معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (بَرَاهْمَسُيْبُطْسِيدُ هَانْت) ألفه سنة ٦٢٨ م أو ٦ ، ٧ هـ الفلكي الرياضي (برهمكبت) فكلف المنصور ذلك الهندي بإملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته إلى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه تتخذة العرب أصلاً في حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال . وتولى ذلك الفزاري وعمل منه زيجاً^(١) اشتهر بين علماء العرب حتى إنهم لم يعملوا إلا به إلى أيام المأمون حيث ابتداء مذهب بطليموس في الحساب والجداول الفلكية . . واقتصر العرب على الجزء الأخير من اسم الكتاب السابق وهو (سِيدُ هَانْت) ثم حرّفوه قليلاً وسمّوه السندهند^(٢) . . ويذكر نالينو ممن أخذوا عن هذا العالم الهندي يعقوب بن طارق وكان رياضياً ممتازاً وله مؤلفات قيمة في الفلك^(٣) .

ويذكر المسعودي أنه ترجم للمنصور بجانب المجسطي كتب أرسططاليس من المنطقيات وغيرها وكتاب الأرخمطيقي في الحساب وكتاب أقليدس وهو في علم الأشكال الهندسية أمهاتها ومركباتها ، وجميع تلك الكتب يونانية . ولم يذكر المسعودي عناية المنصور بنقل الكتب الطبية إلى العربية ، ومعروف أنه استدعى في سنة ١٤٨ للهجرة جورجيس بن جبريل بن بختيشوع كبير الأطباء في بهارستان جنديسابور ورئيس مدرسته ليكون بجانبه وقد نقل كتباً كثيرة من اليونانية إلى العربية^(٤) وأغلب الظن أنها كانت في جمهورها كتباً طبية . وكان جورجيس من السريان النساطرة ، وتعاقبت من بعده أجيال من أبنائه وأحفاده تخدم الطب

وطولم اليونان لأوليري ص ٢٠٩ .
(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٣٧ والتلفظي ص ١٠٩ .

(١) أنزيج : علم الجداول الفلكية .
(٢) انظر علم الفلك وتاريخه عند العرب لنالينو ص ١٤٩ .
(٣) نالينوس ص ١٥٦ والفهرست ص ٣٨٨ .

والترجمة . ومن لمع اسمهم لعهد المنصور في ترجمة كتب الطب اليوناني أبو يحيى
البطريق المتوفى سنة ١٨٠ إذ عُنِيَ بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس^(١) .
وتنشط الترجمة في عصر الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطاً واسعاً ، وكان مما
أذكي جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة أو خزانة الحكمة وتوظيف طائفة كبيرة
من المترجمين بها وجلب الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان يقوم على هذا
العمل الضخم يوحنا بن ماسويه وكان طبيياً نسطورياً من مدرسة جنديسابور ،
وفيه يقول ابن جليل : « قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة الطبية ، مما وُجد بأنقرة
وعمورية وبلاد الروم حين سبأها المسلمون . ووضعه أميناً على الترجمة ، ووضع
له كتاباً حُدِّثاً يكتوبون بين يديه^(٢) » . وقد عاش ابن ماسويه طويلاً إذ توفي
سنة ٢٤٣ وله مؤلفات كثيرة في الطب وتركيب الأدوية . وأسهم في الترجمة حينئذ
جبريل بن بختيشوع كبير أطباء الرشيد إذ تُضاف إليه كتب مختلفة في الطب
وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق .

وللبرامكة فضل عظيم في إذكاء الترجمة حينئذ ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا
على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية واليونانية والفارسية والهندية ، من
ذلك طلب يحيى بن خالد البرمكي إلى بطريك الإسكندرية أن يترجم في الزراعة
كتاباً عن الرومية ، وقد ترجمه برسمه^(٣) ، وكان مما عنوا به إعادة ترجمة بعض
الكتب اليونانية التي ترجمت قبل عصرهم ، بحيث تكون أكثر دقة وإتقاناً ، على
نحو ما صنع يحيى بن خالد بكتاب المحسطى لبطليموس ، فقد ندب له أبا حسان
وسلاماً صاحب بيت الحكمة ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة
المجودين ، فاخترنا نقلهم وأخذنا بأفصح وأصح^(٤) . وقد عنوا عناية واسعة بترجمة
التراث الفارسي ونرى جيلاً كبيراً ينهض في عصرهم والبصر الذي تلاهم بهذه الترجمة
نذكر من بينهم آل نوبخت وعلى رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة
كتب الفلك^(٥) ، وآل سهل وعلى رأسهم الفضل وكان يترجم للمأمون في حدائته بعض الكتب

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧٤ وذكر أوليرى

أنه ترجم لبطليموس كتاباً في التنجيم . انظر علوم

اليونان ص ٤٢ .

(٢) ابن جليل ص ٦٥ والقفطي ص ٢٤٩ .

(٤) الفهرست ص ٣٧٤ .

(٣) انظر مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة

(٥) الفهرست ص ٣٨٢ .

الفارسية ويعجب بترجمته^(١) . ومن أبرز المترجمين للتراث الفارسي حيثئذ محمد بن جهم البرمكي وزادويه بن شاهويه وبهرام بن مردانشاه وموسى بن عيسى الكسرى وعمر بن الفَرَّخَانِ وسلم صاحب خزانة الحكمة وسهل بن هرون أحد خزنتها المشهورين^(٢) . ومن أنفس ما نقلوه أمثال بُزْرَجِمَهْرَ وعهد^(٣) أردشير بن بابك إلى ابنه سابور وكتاب جاويدان^(٤) خِرَدَ في صنوف الآداب ومكارم الأخلاق وكتاب هزار أفسانه وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة . وقد نقل أبان بن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة إلى الشعر وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكي ، ويقال إنه نظم في أربعة عشر ألف بيت^(٥) ، وأيضاً فإنه نقل إلى الشعر العربي سيرة أردشير وسيرة أنوشروان^(٦) . وعلى نحو ما دفع البرامكة إلى ترجمة التراث الفارسي واليوناني دفعوا أيضاً إلى الانتفاع بالتراث الهندي وترجمته ، يقول الجاحظ : « اجتلب يحيى بن خالد البرمكي أطباء الهند مثل مننكه وبازيكر وقلبِرِقتل وسندباد وقلان وقلان » وقد عملوا في البهارستان الكبير ببغداد وسرعان ما استعربوا وشاركواهم وغيرهم من مستعربة الهند في نقل بعض الكنوز الهندية وخاصة في الطب والعقاقير^(٧) وشمل نقلهم صحيفة طويلة في قواعد البلاغة سجلها الجاحظ في بيانه^(٨) ، كما شمل قصة السندباد وكتباً كثيرة في الخرافات والأسفار مما تولع به العامة^(٩) .

وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها في عهد المأمون ، إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً وقد أُلْحِقَ بها مرصده المشهور وجدد في الترجمة ، يقول ابن النديم : « لما استظهر (غلب) المأمون على ملك الروم كتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا

(٤) انظر جمع الجواهر للحصري ص ٧٤ وما بعدها .

(٥) الجهمياري ص ٢١١ .

(٦) الفهرست ص ٢٣٢ .

(٧) الفهرست ص ٣٤٢ ، ٤٢١ .

(٨) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٩) الفهرست ص ٤٢٤ .

(١) الجهمياري ص ٢٣٢ .

(٢) انظر في هؤلاء النقلة عن الفارسية الفهرست ص ١٧٤ ، ٣٤١ وكتاب البيان والتبيين ٣/٢٩ .

(٣) راجع في هذا الكتاب وسابقه ثلاث وسائل للجاحظ (نشر فنكل) ص ٤٢ وابن أبي أصيبعة ص ١٠٩ .

ما اختاروا ، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله ، فنُقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم^(١) » ويقول ابن نباته في ترجمته لسهل بن هرون : « جعله المأمون كاتباً على خزائن الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نُقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد ، فأرسلها إليه ، واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هرون خازناً لها^(٢) » .

ونحن نقف قليلاً عند هؤلاء المترجمين بتلك المؤسسة الكبيرة ، وأولهم الحجاج ابن مطر وقد اشتهر بتحريره لكتاب الأصول في الهندسة لأوقليدس^(٣) وكتاب الجسطى لبطليموس^(٤) . وأما يحيى بن البطريق فكان يجيد اللاتينية واليونانية جميعاً وقد ترجم لأفلاطون قصة طيماوس وترجم لأرسططاليس مختصراً في النفس وكتبه في الآثار العلوية وفي الحيوان وفي العالم^(٥) وكتاب أرسطو إلى الإسكندر المعروف باسم سر الأسرار ، وهو مما نُحل على أرسطو ويشتمل على مزيج من القصص وبعض القواعد في السياسة وفي الصحة والتغذية، وترجم أيضاً كتاب الترياق لجالينوس^(٦) . وقد مضى التعريف بيوحنا بن ماسويه ، أما سلم وسهل بن هرون فلم يكونا ممن ينقلون عن اليونانية ، إنما كانا ممن يراجعان النقل عنها وينتجان فيه ، وهما من أئمة المترجمين عن الفارسية كما أسلفنا. ومن أخذ اسمه يلمع منذ عهد المأمون في الترجمة حين بن إسحق، وكان دقيقاً في ترجمته حتى قالوا إن المأمون رسم له أن يأخذ وزن ما يترجمه ذهباً وقد عاش إلى سنة ٢٦٤ ومكانه لذلك كتاب العصر العباسي الثاني . ومن كبار المترجمين سوى من سميناهم عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي المتوفى حول سنة ٢٢٠ للهجرة وقد اشتهر بترجمته لكتاب الأغاليط لأرسططاليس وشرح يحيى النحوى (يوحنا فيلوبونوس) على كتاب السماع الطبيعي له أيضاً ،

(١) الفهرست ص ٣٣٩ .

(٢) سرح الصيون لابن نباته (طبع مطبعة الموسوعات بالقاهرة) ص ١٦٦ .

(٣) يقول ابن النديم ص ٣٧١ : نقل هذا

الكتاب نقلين يعرف أحدهما بالهاروني نسبة

إلى هرون الرشيد والثاني بالمأمون نسبة إلى المأمون ،

انظر ابن أبي أصيبعة ص ١٧٢ والحيوان للجاحظ

٨٠/١ . والتفتنى ص ٦٤ .

(٤) علوم اليونان لأوليري ص ٢١٥ .

(٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام لدى بور

(نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٢ .

(٦) ابن جليل ص ٦٧ وأوليري ص ٢١٧ .

والعلم عند العرب لألد هيبيل (نشر الإدارة الثقافية

بجامعة الدول العربية) ص ١٢٧ وما بعدها

وترجم كتاباً نسب إليه خطأ وهو كتاب الربوبية أو أوثلوجيا أرسطو ، وهو تلخيص لمقتبس من تاسوعات أفلاطون الإسكندري المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد ومن أجل ذلك يفيض الكتاب بنزعة أفلاطونية محدثة قوية (١) .

وقد جعل المأمون الإشراف على مرصده الكبير ليحيى بن أبي منصور وألحق به طائفة من نابهي الفلكيين (٢) مثل علي بن عيسى الإسطرلابي ومحمد بن موسى الخوارزمي والعباس بن سعيد الجوهري . ولم يلبث هذا المرصد أن تحول إلى مدرسة رياضية فلكية كبيرة تخرج فيها غير فلكي مثل بنى موسى بن شاكر . وقد أفادت هذه المدرسة من الأبحاث الفلكية الرياضية والجغرافية التي سبقها إليها الهنود والفرس واليونان ، وأضافت إلى ذلك إضافات جديدة باهرة ، إذ وضعت لحركات الأفلاك زيجات وجداول أكثر دقة مما كان لدى الأقدمين وأدخلت تحسينات على خريطة بطليموس ، واستطاعت أن تقيس درجتين من درجات محيط الأرض على أساس كرويتها ، إلى مباحث فلكية وجغرافية ورياضية كثيرة (٣) .

ومحمد بن موسى الخوارزمي هو أكبر العلماء الرياضيين والفلكيين الذين قاموا على أبحاث هذا المرصد ، وهو يُعدُّ بحق منشئ عصر جديد في التاريخ العالمي للرياضيات إذ اكتشف علم الجبر وقواعده وأعطاه اسمه الذي شاع من بعده في العالم كله ، وقد أضاف إليه أبحاثاً مبتكرة في أرقام الحساب الهندية وفي حساب المثلثات وفي الجغرافية وفي الأزياج أو الجداول الفلكية ، يقول ألدومبيلي : « وله في هذا المجال أعظم تأثير ، أولاً في الشعوب الإسلامية ثم بعد ذلك في الشعوب الغربية المسيحية ، وحسابه المفقود نصه العربي مع وجود ترجمة لاتينية له من القرن الثاني عشر الميلادي كان له أعظم الفضل في تعريف العرب واللاتين من بعدهم بنظام العدده الهندي ، وكتابه المشهور المختصر في حساب الجبر والمقابلة لم يؤدِّ فقط إلى وضع لفظ علم الجبر وإعطائه مدلوله الحالي ، بل إنه افتتح عصرًا جديدًا في الرياضيات . . . وألف أيضًا كتبًا في الهندسة ، ووضع جداول خاصة بحساب

(١) انظر دي بورص ٢٢ وعلوم اليونان

لأولرى ص ٢١٧ .

(٢) راجع في الفلكيين لعهد المأمون الفهرست

ص ٣٨٣ .

(٣) انظر في بحوث هؤلاء الفلكيين ألدومبيلي

ص ١٤٨ وأولرى ص ٢٢٣ .

المثلثات والسطوح الفلكية (١) .

وقد نشر على مصطفى مشرفه ومحمد مرسى أحمد كتابه « الجبر والمقابل » وهو يذكر في مقدمته تشجيع المأمون له منوهاً به . ويظهر أنه نجح في صنع الجداول الفلكية نجاحاً رائعاً ، ويقول نالينو إنه « اصطنع زيجاً سماه السندهند الصغير جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس ، وجعل أساسه على السندهند ، وخالفه في التعاديل والميل ، فجعل تعاديله على مذاهب الفرس وجعل ميل الشمس فيه على مذهب بطليموس (٢) » .

والخوارزمي - بدون ريب - يفتح افتتاحاً رائعاً سلسلة الرياضيين والفلكيين والجغرافيين من علماء العرب العظام . وقد نبغ في هذا العصر كثيرون في الطب وعلم العقاقير على نحو ما تشهد بذلك كتب طبقات الأطباء وما تزخر به من سيول الرسائل والكتب في الأمراض وطرق علاجها والعقاقير وتركيبها . وقد استطاع يوحنا ابن ماسويه - بما كان يعكف عليه من تشريح القردة (٣) - أن يضيف بعض النتائج الجديدة إلى ما خلفه جالينوس في علم التشريح ، وله في طب العيون رسالة مهمة سماها « دغل العين » وقد دوت شهرتها في عصره وبعد عصره وترجمت إلى اللاتينية (٤) .

وقد مضى العرب يُعَمَّنُونَ - منذ خالد بن يزيد بن معاوية - بعلم الصنعة (الكيمياء) وظلوا يزدادون فيه علماً حتى ظهر لهذا العصر جابر بن حيان ، وهو ابن صيدلى كوفي ، فأرسى هذا العلم على دعائم التجربة وخلف فيه كثيراً من النظريات في الأكسير وخواصه ، وصور ذلك في أكثر من مائة رسالة ، تُرجمت منها طائفة كبيرة إلى اللاتينية وأفاد منها الأوربيون فوائد جليلة مما كان له أكبر الأثر في نهضة الأبحاث الكيميائية بديارهم . وقد تشكك في شخصية جابر ومصنفاته بعض الباحثين المحدثين (٥) ، وهو شك بدأه بعض القدماء حتى لئرى ابن النديم يرد عليهم رداً طويلاً (٦) ، وهو - دون نزاع - المؤسس الأول لعلم الكيمياء عند

(٥) انظر كتاب جابر بن حيان لركبي نجيب محمود في سلسلة أعلام العرب ص ١٩ وألدومبيل ص ٩٩ ومادة جابر في دائرة المعارف الإسلامية .
(٦) الفهرست ص ٤٩٩ .

(١) ألدومبيل ص ١٥٤ وقارن بصفحة ١٤٨ .
(٢) نالينوس ص ١٧٥ .
(٣) ابن أبي أصيبعة ص ١٢٨ - ١٢٩ .
(٤) علوم اليونان لأولبرى ص ٢٢٤ .

العرب ، كما أن الخوارزمي المؤسس الأول للعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية ،
وكما أن يوحنا بن ماسويه المؤسس الأول للأبحاث الطبية العربية .

وكان مما عنوا بنقله إلى العربية كتب الموسيقى لأوقليدس وغيره^(١) ، وكان لها
تأثير بعيد في نهضة الغناء والتلحين وقد استطاع الخليل بن أحمد أن ينفذ مما ترجم
منها إلى وضع علم العروض العربي ، وأيضاً فإنه ألف كتاباً بديعاً في علم الإيقاع
اتخذته إسحق الموصلي قدوته في كتبه الموسيقية^(٢) .

وكل هذه السيول من الترجمة كانت تجرى معها سيول أخرى من تراث اليونان
والفرس والهند ، حتى ليكاد الإنسان يظن أنه لم يبق شيء من هذا التراث لم ينقل
إلى العربية ، سواء منه ما اتصل بالعلوم أو ما اتصل بالصناعات أو ما اتصل
بالعجائب والأسفار والخرافات ، أو ما اتصل بالملل والنحل . وكانت كل هذه
السيول تتجمع في دكاكين الوراقين ، ويطلب كل منها ما يجد فيه متاعه .

وكانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية أعظم ما حَمَلت هذه السيول ، وقد
مضى العقل العربي يسيغهما ويتمثلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة، والمتكلمون
— وعلى رأسهم المعتزلة — هم أهم من تعمقوا الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها ، وقد
عرضوها على بساط البحث ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار
والآراء التي لم يسبقهم إليها سابق .

وعلى هذا النحو أصبح العقل العربي في العصر العباسي الأول عقلاً متفلسفاً
كما أصبح عقلاً علمياً، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضاً من حيث
إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علوماً لأول مرة في تاريخ الحضارة
الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمي علم الجبر . وكان هذا العقل قد أظهر نصبجه
العلمي وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثاني ، مما نراه متجلياً في العلوم اللغوية
والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام .

(٢) إنباه الرواة ٣٤٣/١ ومجمع الأدباء
٧٣/١١ والمزهر (طبعة الحلبي) ٨١/١ .

(١) الفهرست ص ٣٧٢ والأغاني (طبعة
دارالكتب) ٢٧١/٥ .

العلوم اللغوية والتاريخ

عنى - منذ أواخر عصر بني أمية - جمهور كبير من العلماء في البصرة والكوفة يجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب في الجاهلية والإسلام، وكان من أهم الأسباب في هذه العناية حاجة الشعوب الأجنبية التي دخلت في الإسلام إلى تعلم لغة القرآن الكريم، ثم ما كان من شيوع اللحن على ألسنة الموالى المستعربين، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية وما حدث من ضعف سلاتهم بسبب تحضرهم، وكان كثير من منهم قد نشأوا في حجور أمهاتهم من الإماء فضعفت عندهم الملكة اللغوية وأخذ اللحن يتمشى في كلامهم. وكانت هناك لهجات كثيرة متفاوتة قريباً وبعداً من الفصحى وتدور على ألسنة العرب الذين نزلوا واستوطنوا البلدين الكبيرتين.

ولكل هذه الأسباب انبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ اللغة وأشعارها حتى لا تفتى العربية في لغات الشعوب المستعربة، وحتى تسلم لها مقوماتها الأصلية، وحتى تنقى عنها وتطرح شوائب اللهجات القبلية. وقد اشترطوا على أنفسهم أن لا يأخذوا اللغة من عربى حضرى وأن يرحلوا في طلبها إلى باطن الجزيرة حيث ينابيعها الصافية، وكانوا يقصدون بذلك إلى غايتين، أولاهما أن يقوموا ألسنتهم ويكتسبوا السليقة اللغوية السليمة، وثانيتها أن يلتقطوا من الأفواه مباشرة مادتهم اللغوية الصحيحة التي يعرضونها على الناشئة وفي حلقات المساجد، ويصور أبو نصر الفارابى صنعهم في هذا الجانب فيقول: «والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتدى وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس وقيم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالحملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكران البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم

يؤخذ لا من لَحْمٍ ولا من جُذَامٍ لمجاورتهم أهل مصر والقطب ، ولا من قَضَاعَةٍ
وَعَسَّانٍ وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب
والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ،
ولا من عبد القيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من
أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان الهامة ، ولا من ثقيف
وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن
الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدعوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم
وفسدت ألسنتهم^(١) .

وعلى هذا النحو كان اللغويون يتوغلون في نجد حيث المادة اللغوية الفصيحة
التي يجمعونها من هنا وهناك ويمثلون بها حقايبهم ، وعن أبي عمرو بن العلاء شيخ
البصرة : « لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية »
يقصد الجزء الغربي من نجد وما يترامى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز .
وسرعان ما أقبل من أغوار نجد إلى البصرة والكوفة ثم بغداد بعض الأعراب الفصحاء
ليتكسبوا برواية الأشعار وتلقينها للناشئة وبعض العلماء اللغويين مثل ثور بن يزيد
الذي أخذ عنه ابن المقفع الفصاحة^(٢) ، وأبي سَوَّار الغنوي أستاذ أبي عبيدة^(٣) ،
ويسوق ابن النديم أسماء^(٤) طائفة كبيرة من هؤلاء الأعراب .

وقد تعاقبت في هذا العصر ثلاثة أجيال من علماء البصرة والكوفة تجمع اللغة
والشعر ، ورأس الجيل الأول في البصرة أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ وقيل
سنة ١٥٩ وهو أحد القراء السبعة المقدمين الذين أُخذت عنهم قراءات القرآن
الكريم ، وكان حجة ثبناً صدوقاً ، وفيه يقول الجاحظ : « كان أعلم الناس بالغريب
والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس^(٥) » . وأشهر أفراد الجيل التالي
له خلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠ والأصمعي المتوفى سنة ٢١٣ وفي تعيين سنة وفاته
اختلاف كبير وأبو زيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ وأبو عبيدة المتوفى سنة ٢١٠ .
وكان الأصمعي ثقة ثبناً ومجموعته الشعرية الملقبة بالأصمعيات بعيدة الشهرة ،

(١) المزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) ٢١١/١ . (٤) الفهرست ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) الفهرست ص ٦٧ . (٥) البيان والتبيين ١/٢٢١ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

ورُويت عنه دواوين كثيرة أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنرة وعلقمة بن عبدة . وكان أبو زيد مثله صدقاً وأمانة وصباً عنايته على جمع اللغات الشاذة كما يتضح في كتابه « النوادر » في اللغة . وأبو عبيدة ينزل عنه وعن الأصمعي درجات في الثقة به إذ كان شعوبياً ذميماً ومن أشهر مصنفاته شرح نقائض جرير والفرزدق وكتاب المجاز في القرآن . وأهم أفراد الجيل الثالث من لُغَوِيِّ البصرة محمد بن سلام الجمحي صاحب « طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين » وهو كتاب نفيس إذ يصور عمل المدرسة البصرية في توثيق الشعر القديم ووضع شعرائه في طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنية .

ورأس الجيل الأول من لغوي الكوفة حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ وكان عالماً بالشعر والغريب غير أنه كان ماجناً فاسقاً زنديقاً ، فشاب روايته بالوضع والانتحال على السنة العرب ، مما جعل علماء البصرة وعلماء الكوفة أنفسهم من مثل المفضل الضبي معاصره يسقطونها ويزيفونها . وكان المفضل ثقة صدوقاً وحجة في الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بالفضليات أنفست مجموعات الشعر القديم . وأشهر أفراد الجيل الثاني في الكوفة أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ ويقال إنه دخل البادية ومعه دَسْتِيجَان^(١) حَبِيراً فَمَا خَرَجَ حَتَّى أَفْهَمَا بِكُتَابَةِ سَمَاعَةَ عَنِ الْعَرَبِ الْفَصَحَاءِ ، ويقال إنه كتب أشعار نيف وثمانين قبيلة . ولا يقل عنه شهرة معاصره ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ وقد رويت عنه دواوين كثيرة ، وهو إلى أن يكون في جيل الكوفة الثالث أقرب منه إلى أن يكون في جيلها الثاني . ومن أهم أفراد الجيل الثالث أبو عُبَيْدِ الْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ ، ويقال إن الناس لم يكتبوا في اللغة أصح من كتبه ولا أكثر فائدة ، وله مصنفات كثيرة من أشهرها غريب الحديث والغريب المصنف .

ومن ينعم النظر فيما سجلت كتب طبقات اللغويين والنحويين لهؤلاء العلماء من مصنفات يمجدها تتطور من التأليف في موضوعات جزئية مفردة مثل كتاب الفرس وكتاب الإبل إلى تأليف المصنفات المطولة حتى لتتحول إلى معاجم لغوية على

(١) الدَسْتِيج : إناء .

شاکلة کتاب الغریب المصنف لأبی عیند ، وسترى الخلیل بن أحمد یضع منهج أول معجم لغوی فی العریة . وینبغی أن نعرف أن الطریقة الأولى الی تی تُعنی بالجزئیات المقردة ظلت غالباً علی محاضرات اللغویین طوال القرون : الثانی والثالث والرابع علی نحو ما یصور ذلك الكامل للمبرد ومجالس ثعلب وأمالی القالی .

وإذا تركنا جمع اللغة وروایة الشعر إلى النحو وجدنا البصرة تسبق الكوفة إلى وضع قواعده ومصطلحاته وصَبَّغها بالصبغة العلمیة ، وقد حاول بعض المستشرقین أن یربطوا بین النحو العربی والنحو الیونانی أو السریانی ، محاولین أن یثبتوا وجودها من الصلة بینهما و بین النحو العربی ، وكأنه نشأ علی هدیئهما (١) . وأكبر الظن أنه ولید العقل العلمی العربی الذی استوی علی سوقه فی القرن الثانی ، ودفع دفعا إلى وضع علوم عربیة كبریة ، منها اللغوی ومنها الدینی .

وجاء فی بعض المصادر القدیمة أن أول من وضع العریة أبو الأسود الدؤلی المتوفی سنة ٦٩ وشبّه علی بعض القدماء والمحدثین أنه وضع شیئاً من قواعد النحو ، والحقیقة أنه لم یضع منها شیئاً ، إنما الذی وضعه حقاً وكان أول واضعیه نَقَطُ المصحف نَقَطاً یعیّن حركات أواخر الكلم فیهِ أو بعبارة أدق یعین حركات الإعراب (٢) ، فكان یضع نقطة فوق الحرف الأخير للكلمة إشارة إلى الفتحة ، ونقطة بین یدیه إشارة إلى الضمة ، ونقطة تحته إشارة إلى الكسرة ، وإذا تبع شیئاً من هذه الحركات غنة أو تنوین نقط الحرف نقطتین . واختلط التعبير عن هذا الصنع بكلمة العریة علی بعض أصحاب كتب الطبقات فظنوا أنه وضع بعض أبواب النحو أو بعض مسائله .

وأول نحاة البصرة الحقیقین عبد الله بن أبی إسحق الحضرمی المتوفی سنة ١١٧ وعیسی بن عمر الثقفی المتوفی سنة ١٤٩ . أما ابن أبی إسحق فیقال إنه أول من نهج النحو ومدّ القیاس وشرّح العلل ، وأما عیسی بن عمر فإنه أول من وضع الكتب فی النحو إذ ألف فیهِ مصنفین هما الإكمال والجامع ، ویقال إن الأخير أصل کتاب سیویه ، زاد فیهِ وحشاه . ویعد الخلیل بن أحمد المتوفی فی سنة ١٧٥ هو الواضع الحقیقی لعلم النحو فی صورته النهائية الی أدّاها عنه تلمیذه سیویه فی

(٢) انظر المحکم فی نقط المصاحف لأبی عمرو الدانی (طبع دمشق) ص ٤ وما بعدها .

(١) راجع فی ذلك تاریخ الأدب العربی لبروكلمان ١٢٤/٢ . وذولک فی مجلة الجمعية الشرقیة الألمانية ، المجلد ٥٩ ص ٤١٤ .

مصنفه الملقب باسم « الكتاب » وهو في كثير من صفحاته يحكى آراءه وقد ذكره في نحو ثلاثمائة وسبعين موضعاً ، ويقول السيرافي : « كل ما قال سيويه : سألته أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل^(١) » ويقول إنه كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه ، ويقول الزبيدي : إنه استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد وما لم يسبقه إلى مثله سابق^(٢) .

فالخليل هو المؤسس الحقيقي لصرح النحو العربي ، بل هو المقيم لقواعده والمشيد لبنينه وأركانها ، وكانت المادتان الأساسيتان اللتان اعتمد عليهما في رفع هذا الصرح إلى عنان السماء - كما يوضح ذلك كتاب تلميذه سيويه - القياس والعلل ، أما القياس فيتضح في ضبطه القواعد واطرادها بحيث تُسقى الشواذ ، وأما العلل ففقدت القياس التي تثبت صحته بما تقدمه من أدلة عقلية سديدة .

ويظهر أن الخليل كان يتقن المنطق الذي ترجمه صديقه ابن المقفع وما يتصل به من القياس ، وأيضاً فإنه كان يتقن العلوم الرياضية^(٣) ، وهو إتقان جعله يقف على ما يصنعه أصحاب الحساب والرياضيات في مسائلهم الفرضية لترسخ ملكة هذه العلوم في عقول الناشئة . وعلى ضوء من هذا الصنيع مد القياس في التصريف والنحو ، فتولدت له ألفاظ جديدة وفروض في الصيغ بقصد تمرين التلاميذ وتدريبهم وهي ما يسميه النحاة بالتهارين غير العملية . وقد تمثل تمثلاً دقيقاً فكرة المعادلات والتوافيق والتباديل التي هيأت عند الخوارزمي لنشأة علم الجبر ، وهي تلاحظ عنده في الميزان الصرفي وفي الخطة التي وضعها لصنع المعجم المعروف باسم « العين » إذ دفع تلميذه الليث بن نصر بن سيار أن يقلب كل الصيغ الثنائية والثلاثية والرابعة والخماسية على حروف الهجاء وبذلك حصر جميع الكلمات مما نطقت به العرب وما لم تنطق مع نصه في المعجم على الطرفين . وجعله يرتبه على مخارج الحروف بالضبط كما ترتب عند الهنود حروف السنسكريتية^(٤) ، وفي ذلك ما يشير إلى إطلاعه على بعض الأبحاث الهندية في الأصوات ، ولعل ذلك ما جعله

(٣) الزبيدي ص ٤٣ وإنباء الرواة ١/٣٤٦ .

(٤) انظر ترجمة الخليل في دائرة المعارف

الإسلامية .

(١) أخبار النحويين البصريين للسيرافي (طبعة

كرنكو) ص ٤٠ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي

انشر الحانجي) ص ٤٣ .

يعنى بالهمز والتشديد والروم والإشمام^(١) . ويبلغ تطبيقه لفكرة التباديل والتوافيق الرياضية الغاية في وضعه لعلم العروض ، لا من حيث ما اقترحه فيه من تفاعيل فقط ، بل أيضاً من حيث ما وضعه فيه من دوائر ، إذا قُدِّمت فيها أجزاء التفعيلات بعضها على بعض خرجت الأوزان التي استعملها العرب وأوزان أخرى أهلوها ولم يستعملوها ، وبذلك فتح الأبواب واسعة أمام العباسيين كي يجدوا في الأوزان حسب إرادتهم الفنية .

وخلدته على تراثه النحوي سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ غير متجاوز للأربعين من عمره في أرجح الأقوال ، وقد أودع هذا التراث مصنفه الموسوم باسم « الكتاب » مضيئاً إليه من أنظاره ما يدل دلالة بينة على فطنته ونفاذ بصيرته . والكتاب يُعَدُّ آية خارقة من آيات العقل العربي حتى سماه بعضهم قرآن النحو ، ويقول صاعد ابن أحمد الأندلسي : « لا أعرف كتاباً أَلَّفَ في علم من العلوم قديمها وحديثها اشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب ، أحدها المحسطى لبطليموس في علم هيئة الأفلاك ، والثاني كتاب أرسططاليس في علم المنطق والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي ، فإن كل واحد من هذه لم يشذ عنه من أصول فنه شيء إلا ما لا خطر له^(٢) » . وأهم من تلقى هذا الكتاب عن سيبويه من البصريين الأخص الأوسط سعيد بن مسعدة المتوفى سنة ٢١١ فكان الطلاب يقرءونه عليه ويشرحه لهم ويفسره ، وله في النحو مصنفات كان ينشر فيها ضرباً من الغموض والتعقيد رغبة في التكسب بها^(٣) ، واشتهر بأنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته كما اشتهر بإتقانه لعلم العروض وتأليفه فيه .

ولم يكن النشاط النحوي منذ أوائل هذا العصر خامداً في الكوفة ، فقد كان بها طائفة من النحاة غير أنهم لم يبرعوا في النحو براعة البصريين ، ومن أجل ذلك كانوا يكثرون من الرحلة إليهم والتلمذة عليهم ، حتى إذا تقدم العصر أخذوا يستقلون عن نظرائهم في البصرة بمذهب نحوي خاص بهم بحيث أصبح في النحو مذهبان متقابلان : مذهب البصرة الذي يعنى بالقياس مستنداً له من استعمال العرب الشائع ، ومذهب الكوفة الذي يُعنى بالسماع ويقدمه على القياس مهما كان شاذاً نادراً .

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (طبعة

(٢) معجم الأدباء ١٦/١١٧ .

(٣) الحيوان ١/٩١ .

مطبعة حجازي بالقاهرة) ١٧١/٢ .

وأقدم نحاة الكوفة أبو جعفر الرواسي تلميذ عيسى بن عمر أستاذ البصريين ، وحسبته معاذ بن مسلم الهراء المتوفى سنة ١٨٧ ويقال إنه هو الذي وضع علم الصرف غير أننا نشك في ذلك لأن الصرف مندمج في كتاب سيويه المتوفى قبله . وأرسخ منه قدماً في الدراسات النحوية الكسائي المتوفى سنة ١٨٩ وقد تتلمذ للخليل وتلقى عن الأخفش كتاب سيويه ، وفراه يشيد بالقياس قائلاً :

إنما النحو قياسٌ يُتَّبَعُ وبه في كل أمرٍ يُسْتَفَعُ
ويقول بعض البصريين : « لولا أنه دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً ، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل (١) »

وأهم نحاة الكوفة في العصر الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ وكان مثل أستاذه الكسائي يقدم السماع على القياس ، وأكثر من قراءة كتاب سيويه ، ليحاول تعقبه ومخالفته في بعض ألقاب النحو ، وقد صاغ منها كثيراً أشاعه في كتابه « معاني القرآن » مثل الجحد بدلا من النفي والتكرير بدلا من البدل والتفسير بدلا من التمييز (٢) . وهو الذي جسّم الخلاف بين المدرستين الكوفية والبصرية لقدرته على الحجاج والجدل ، ويقال إنه كان مثقفاً ثقافة فلسفية واسعة ، وأنه كان يستخدم في كتبه ألقاب الفلاسفة ، وبدل على ذلك كتابه « الحدود » في النحو فإن اسمه يحمل صلة قوية بينه وبين مباحث الحدود في المنطق ، ومن أهم كتبه « معاني القرآن » وهو يكتظ بأرائه النحوية .

وواضح مما قدمناه أن الكوفة لم تُسهم مساهمة حقيقية في وضع أصول النحو فقد سبقتها البصرة إلى ذلك محتكمة احتكاماً شديداً إلى القياس (٣) ، وإلى نظرية العامل التي ينفرد بها نحونا العربي والتي تُعَدُّ قوامه ، وهي تدل على أن هذا النحو لم يوضع على أساس نحو أجنبي ، فمحوره الذي تدور حوله بحوثه محور عربي خالص ، إنما كل ما يمكن أن يقال إنه أفاد من العقلية العلمية الحصبة التي اكتسبها العرب في العصر العباسي الأول من خلال تمثلهم للثقافات الأجنبية الفلسفية والعلمية .

(١) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي (نشر

مكتبة نهضة مصر) ص ٧٤ .

(٢) انظر معاني القرآن للفراء ٥٢ ، ٥١/١ .

، ٢٢٢ .

(٣) انظر مقدمتنا لكتاب الإيضاح في علل

النحول لزجاجي (طبع القاهرة) .

وبما كان يعنى به النحاة واللغويون أنساب العرب وأخبارهم التي تؤديها أشعارهم ، وهي عناية اقترنت بنمو الكتابة التاريخية حينئذ ، وهو نمو ارتبط بالسيرة النبوية ، وانضمت إليها مادة من تاريخ الرسل ومن تاريخ العرب ثم تاريخ الأمم المجاورة للجزيرة العربية وخاصة الفرس .

وكانت السيرة النبوية مثبتة فيها يروى من الأحاديث ، فأخذ كثيرون يستخلصونها منها ، وعُتوا بالقصص عن الأنبياء والرسل لتوضيح جوانب من القصص القرآني وللوعظ والتذكير بالله واليوم الآخر ، وعُتوا أيضاً بكتابة أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها وملوكها . وما نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى تكثرت الكتابة عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه وبعوثة الحريية ، ويلمع في هذا الجانب اسم محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥٠ وقد وزع السيرة النبوية على ثلاثة أقسام كبيرة ، هي المبتدأ والمبعث والمغازي . ويتضمن المبتدأ تاريخ العرب القديم وقصص الأنبياء ، ويتضمن المبعث حياة الرسول في مكة ، وتتضمن المغازي حياته في المدينة . ولم يصلنا هذا الكتاب^(١) ، إنما وصلتنا رواية مهذبة له رواها عبد الملك بن هشام المتوفى بالفسطاط سنة ٢١٨ .

ومن المؤرخين الكبار الذين عتوا بكتابة السيرة والمغازي النبوية في هذا العصر محمد بن عمر الواقدي قاضي المأمون المتوفى سنة ٢٠٧ وله مصنفات كثيرة في الفتوح وتاريخ الخلفاء وأيام الناس ، ونشرت له قطعة خاصة بالمغازي ، وقد ضمن كتابه وتلميذه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ كتابه « الطبقات الكبرى » سيرة مطولة للرسول عليه السلام .

وكان من أثر الاهتمام بالمدينة في السيرة الزكية أن أخذت تُفرد لها المصنفات على نحو ما هو معروف عن محمد بن الحسين بن زبالة المتوفى بعد المائتين ، وكتابه الذي خصه بها هو الأصل الذي ألهم العلماء بعده التأليف في تاريخ المدن .

وعنى كثير من المؤرخين بالكتابة في أحداث الدولة العربية على نحو ما هو معروف عن أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي المتوفى سنة ١٥٨ وله كتب مختلفة في الفتوح وفي حروب صفين ، وسيف بن عمر التميمي المتوفى سنة ١٨٠ ويشتهر بمؤلفات

(١) توجد قطعة من هذا الكتاب في مكتبة الرباط

العامه بالمغرب .

له في الردة والفتوح ووقعة الجمل ، ونصر بن مزاحم المتوفى سنة ٢١٢ وقد نُشرت له بالقاهرة وقعة صِفَيْن .

وصبَّ هشام بن محمد الكلبي عنايته على تاريخ العرب القديم وما يتصل به من أنساب وأيام وأشعار ، وكان متهماً بالوضع عند معاصريه ، ونُشر له بالقاهرة كتاب الأصنام . ومن أعلام المؤرخين لهذا العصر المدائني المتوفى سنة ٢٢٥ وكان له كتاب ضخيم في أخبار الخلفاء وآخر في الدولة العباسية ومصنفات مختلفة في السيرة النبوية وفي الفتوح وأيام الناس ، وهي تُعدُّ بالثالثات ، وقد استقصاها ياقوت وابن النديم . وأخذت تُؤلف في هذا العصر كتب الرجال الذين حملوا الحديث النبوي من صحابة وتابعين على نحو ما يصور ذلك كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد الذي أشرنا إليه آنفاً ، ومثله كتاب معرفة الرجال ليعحي بن معين المتوفى في سنة ٢٢٣ .

وعلى هذا النحو نشطت كتابة التاريخ في العصر العباسي الأول ، فلم تقف عند السيرة النبوية ، بل اتسعت لتشمل تاريخ العرب في الجاهلية وفتوحهم ودولهم في الإسلام وتاريخ الرسل والأنبياء ، وهبطت إليهم روافد من تاريخ الأمم القديمة وخاصة الفرس ، إذ عُنِيَ ابن المقفع وغيره بترجمة الكتب المؤلفة في سير ملوك العجم .

٥

العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال

نشأت العلوم الدينية في ظلال الحديث النبوي ، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أُثِر عن الصحابة لا في تعاليم الدين الحنيف فحسب ، بل أيضاً ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم في تفسير الذكر الحكيم . وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير . وقد أخذ يدوّن تدويناً عاماً منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، على نحو ما هو معروف عن ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ وما نكاد نتقدم في العصر العباسي حتى يتكاثر التصنيف فيه ، وكانوا يوزعونه في

مصنفاته غالباً على أبواب الفقه ، وأول جيل يلقانا لمصنفيه^(١) في هذا العصر جيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة المتوفى سنة ١٥٠ ومعر بن راشد باليمن المتوفى سنة ١٥٣ وسعيد بن أبي عروة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦ ومواطنه الربيع ابن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ ومواطنهما حماد بن سلمة المتوفى سنة ١٦٥ وسفيان الثوري بالكوفة المتوفى سنة ١٦١ وعبد الرحمن الأوزاعي بالشام المتوفى سنة ١٥٧ والليث بن سعد بالفسطاط المتوفى سنة ١٧٥ . ويتبع هذا الجيل جيل ثان على رأسه مالك بن أنس بالمدينة المتوفى سنة ١٧٩ وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨ وعبد الرازق الصنعاني باليمن المتوفى سنة ٢١١ وعبد الله بن المبارك بخراسان المتوفى سنة ١٨١ وهشيم بن بشير بواسط المتوفى سنة ١٨٣ ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة بالمداين المتوفى سنة ١٨٣ ومحمد بن فضيل بن غزوان بالبصرة المتوفى سنة ١٩٨ ووكيع بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦ وعبد الله بن وهب بالفسطاط المتوفى سنة ١٩٧ .

وأهم كتاب وصلنا عن هذين الجيلين كتاب «الموطأ» لمالك بن أنس إمام أهل المدينة ، وهو مرتب على أبواب الفقه ، وفي كل باب أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - المتعلقة به وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وفتاوى مالك نفسه . وقد ظل عليه على طلابه نحو أربعين عاماً ، وهو يزيد وينقص فيه وفي أحاديثه ، ولذلك اختلفت رواياته ، وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد شرحها الزرقاني وشرحه مطبوع .

وأخذت تقترن في أواخر القرن الثاني بالطريقة السالفة في تصنيف الحديث طريقة جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، مما جعل أصحابها يوزعون الحديث في مصنفاتهم على أساس روايته من الصحابة ، وهي الطريقة المعروفة باسم «المساند» إذ يُسند المؤلف لكل صحابي ما روى عنه من الأحاديث ، ومن سبقوا إلى التأليف على هذه الطريقة الربيع بن حبيب الإباضي البصري المتوفى سنة ١٧٠ ومسنده مطبوع وأبو داود الطيالسي المتوفى بالبصرة سنة ٢٠٣ ومسنده هو الآخر مطبوع .

١/٧٩ وقوت القلوب ص ٢١٦ والنهرست .
ص ٣١٤ .

(١) انظر في جليل مصنفي الحديث التاليين
خط المقيزي ١٤٣/٤ وإحياء العلوم للزناكي

وأشهر المصنفات في هذا الاتجاه مسند ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وهو مطبوع في ستة أجزاء ضخام .

وبجانب الطريقتين السالفتين في تصنيف الحديث أخذت تشيع طريقة الثالثة توزع فيها الأحاديث على المعاني والموضوعات التي تتصل بها فقهية وغير فقهية ، ومن أقدم من ألفوا فيها أبو بكر عبد الله بن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥ وفيه يقول المقرئى : « تفرد بتكثير الأبواب وجودة التصنيف وحسن التأليف (١) » واتبع طريقته في العصر العباسي الثاني البخارى وغيره من أصحاب الصحاح الستة .

وأخذ المحدثون منذ هذا العصر يعرضون رواة الحديث على نقد شديد حتى يحيطوه بسياج متين من الصحة والثقة ، مما أدى إلى نشوء علم هو علم الرجال أو علم التعديل والتجريح ، وهو علم محص مادة الحديث ونفى عنها الزيف والتدليس ، وأهم من بدأ التصنيف فيه - كما أسلفنا في غير هذا الموضوع - محمد بن سعد ويحيى بن معين . ومن العلوم التي نشأت حول الحديث لهذا العصر علم غريبه ، وهو علم يعنى بتفسير ما فيه من ألفاظ غريبة ، وقد ألف فيه كثيرون من لغويي (٢) هذا العصر وعلى رأسهم أبو عبيد القاسم بن سلام .

وإذا تركنا التصنيف في الحديث إلى التصنيف في تفسير القرآن الكريم وجدنا مصنفات كثيرة فيه تستمد مما أثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة وخاصة أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وما أذاعه تلاميذه الكثيرون عنه ، وقد سجل ابن النديم أسماء طائفة كبيرة من هذه المصنفات (٣) ، وتولأها العلماء بالجرح والتعديل ، فمنها ما اتهموه ومنها ما وثقوه ، وقد أجمعوا على صحة ما دررته على بن أبى طلحة المصرى عن ابن عباس ، وفي ذلك يقول ابن حنبل : « بمصر صحيفة في التفسير (عن ابن عباس) رواها ابن أبى طلحة لورحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً » (٤) . ومن أهم المفسرين في هذا العصر بتلك الطريقة التي تعتمد على التفسير بالمأثور سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بالمدينة ووكيع بن الجراح وأبو بكر بن أبى شيبة . وقد ضاعت كتبهم هم

(٤) الإتيقان السيوطى (طبع مطبعة حجازى)

. ١٨٨/٢

(١) خطط المقرئى ١٤٣/٤ .

(٢) الفهرست ص ١٢٩ .

(٣) الفهرست ص ٥٠ .

ومن سبقهم غير أن الطبرى احتفظ في تفسيره الكبير بكل هذه الثروة الماثورة الغنية. وقد أخذ الشيعة يستقلون - منذ هذا العصر - بتفاسير القرآن خاصة بهم ، لعل أهمها تفسير^(١) جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ ، إن صححت نسبته إليه . ونشط المعتزلة في كتابة تصانيف عن المشابهة في القرآن على نحو ما يروى عن بشر^(٢) بن المعتز وأبي الهذيل^(٣) العلاف ، وما زالوا يعنون بتأويل الآيات التي قد تفيد التشبيه على الله أو تفيد الجبر وبمباحث مختلفة حول القرآن وإعجازه حتى استطاع أخيراً أبو بكر الأصم المتوفى سنة ٢٣٢ أن يصنف أول^(٤) تفسير اعتزالي . ونشأت بجانب التفسير - لهذا العصر - علوم قرآنية كثيرة ، أحصاها ابن النديم إحصاءً دقيقاً ، ذاكراً أهم من صنفوا فيها ومصنفاتهم^(٥) ، وهى علم نقطه وشكله وأهم من ألفوا فيه الخليل بن أحمد ومعروف أنه أول من ابتكر الشكل في العربية ، وقد أخذ من صور حروف العلل الممدودة فالضمة واو صغيرة الصورة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فوقه^(٦) . ومن تلك العلوم علم الوقف والابتداء في آياته ، ومن ألفوا فيه الفراء ، وعلم غريبه ومن ألفوا فيه محمد بن سلام الجهمي وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم لغاته ومن صنفوا فيه الأصمعي وأبو زيد الأنصاري ، وعلم معانيه ومن صنفوا فيه الفراء وأبو عبيدة ، وعلم قراءاته ومن صنفوا فيه أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وعلم ناسخه ومنسوخه ومن صنفوا فيه أحمد بن حنبل ، وعلم أحكامه ومن صنفوا فيه الشافعي ويحيى بن أكثم صنفى المأمون وقاضيه .

وازدهرت دراسات الفقه في هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، فإذا الفقهاء يصوغونه صياغة علمية دقيقة على نحو ما صاغ اللغويون النحو وغيره من العلوم اللغوية . ومعروف أن الإسلام فتح أمام الفقهاء أبواب الاجتهاد على مصاريعها ، وكان منهم من يبحث عن نص من القرآن أو السنة يبتدى به في فتواه ، وقلما اعتمد عقله أو استنباطه العقلى ، ومنهم من كان يتسع في الاستنباط والقياس

(٤) انظر مذاهب التفسير الإسلامى لجلود تسيير

(نشر الخانجي) ص ١٣٥ .

(٥) الفهرست ص ٥١ - ٥٧ .

(٦) الحكم في نقط المصاحف ص ٧ .

(١) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (طبع

دار المعارف) ٣ / ٣٤٣ .

(٢) الفهرست ص ٥١ .

(٣) الفهرست ص ٥٥ .

السديد على ضوء الإسلام وتعاليمه. ويمثل الأولين أهل الحجاز بينما يمثل الثانين أهل العراق ولذلك سُمِّوا أهل الرأي ، وسرعان ما تحول الاتجاهان في هذا العصر إلى مذهبين واضحين في الفقه والتشريع : مذهب أبي حنيفة في الكوفة والعراق ومذهب مالك في المدينة والحجاز ، وينفذ الشافعي من خلال المذهبين إلى مذهب مستقل به ، وبأخرة من العصر ينفذ ابن حنبل إلى مذهب رابع كانت تتبعه فيه عامة بغداد .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت يرجع إلى أصل فارسي ، وقد ولد سنة ٨٠ للهجرة وتوفي ببغداد سنة ١٥٠ وكان بزازاً وهو مع ذلك يتشقف بالحديث والقرآن والفقه والتفسير حتى صار أبرع أهل زمانه في الفقه والرأي ، بل لقد نفذ إلى مذهب مستقل به ، وهو مذهب كان يعتمد على الكتاب والسنة ، كما كان يعتمد على القياس العقلي اعتماداً واسعاً متخذاً منه حلولاً للأحكام الكثيرة التي تطلبها المشاكل التي نشأت في حياة الناس من الجهتين الدينية والدنيوية ، ويقال إنه أفتى في ثلاث وثمانين ألف مسألة منها ثمان وثلاثون ألفاً في العبادات والبقية في المعاملات . وإلى دقته في استخدام القياس يشير مساور الوراق إذ يقول (١) :

إذا ما الناس يوماً قايسونا بآبدةٍ من الفتيا ظريفه
أتيناهم بمقياسٍ طريفٍ مصيبٍ من قياس أبي حنيفة

ونفيض من بعده بمذهبه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب المولود بالكوفة سنة ١١٣ والمتوفى سنة ١٨٢ وهو الذي انتشر به مذهب أبي حنيفة في العراق وسائر الأقطار التابعة للخلافة العباسية ، إذ كان قاضي القضاة في عهد الهادي والرشيد وكان لا يولى على أى بلد قاضياً إلا من الفقهاء المنتمين إلى مذهبه (٢) ، وله في الخراج كتاب مشهور مطبوع ، وهو أول من ألف في علم الحيل (٣) وهو علم يفتح بفتاويه المثورة فيه المنافذ لكي يخرج منها من يقع في حرج . وانتهت رئاسة المذهب بعده إلى تلميذه محمد بن الحسن الشيباني الكوفي المتوفى سنة ١٨٩ وكان

(٢) انظر المغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ١٦٤/١ .
(٣) الحيوان ١١/٣ .

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٦٣/١٦ .
وانظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٧٧/٢ وعيون الأخبار لابن قتيبة ١٤٠/٢ .

قد سمع أبا حنيفة وتلمذ له ، كما سمع مالك بن أنس والأوزاعي فقيه الشام ، ومن أخذ عنه الشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو الذي حرَّرَ المذهب الحنفي بكتبه الكثيرة من مثل المبسوط والسير الكبير والجامع الكبير والجامع الصغير ، وقد نوه ابن جني بدقة استخدامه للعلل في كتبه^(١) . وإلى هؤلاء الأئمة الثلاثة يرجع الفضل في صياغة الفقه الحنفي ومصطلحاته صياغة علمية دقيقة .

وكان يقابل هذا المذهب العراقي مذهب مالك بن أنس في الحجاز ، على نحو ما يمثلته كتابه «الموطأ» الذي تحدثنا عنه بين كتب الحديث والذي تُعرَض فيه أبواب الفقه ومسائله على أساس رواية الحديث النبوي والآثار عن الصحابة والتابعين . ومن أهم من تلقوا هذا المذهب عن مالك تلميذه عبد الرحمن بن القاسم المتوفى بالفسطاط سنة ١٩١ وقد أدَّاه بدوره إلى سحنون عالم القيروان المتوفى سنة ٢٤٠ فألف فيه كتابه الملقب باسم «المدونة الكبرى» ونشره ببلاد المغرب . وتلقى المذهب عن مالك أيضاً يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي ، ونشره بموطنه على نحو ما نشر أبو يوسف مذهب أبي حنيفة إذ كان مقدماً ما عند حكام الأندلس وجعلوا له تولية القضاة فكان لا يولى قاضياً إلا من أصحابه المالكية .

ونفذ من خلال هذين المذهبيين إلى تكوين مذهب جديد الشافعي محمد بن إدريس المولود بغزة سنة ١٥٠ والمتوفى بالفسطاط سنة ٢٠٤ وقد نشأ بمكة وحمل ما بها من حديث ، وفي سنة ١٧٠ رحل إلى المدينة ولزم مالكا إلى أن توفي ، فرحل إلى اليمن وأنهم باشتراكه في ثورة لبعض العلويين ، فأُرسِل به إلى الرشيد وعفا عنه . وانتهز فرصة مقامه ببغداد فقرأ كتب محمد بن الحسن الشيباني وناظره طويلاً ، وخرج إلى مصر ونشر بها مذهبه الذي يجمع بين طريقة الحجازيين في الاعتماد على الكتاب والسنة وطريقة العراقيين في الاعتماد على القياس . وقد انتهت عنده الروح العلمية الأصيلة التي سادت في مباحث الفقهاء إلى الغاية المنتظرة إذ استطاع أن يضع في كتابه الملقب باسم الرسالة علم أصول الفقه لأول مرة ، وفيه حرَّر المناهج في استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وهو بذلك يقف علماً في تاريخ الفقه الإسلامي ، يقول الرازي : «واعلم أن نسبة الشافعي

(١) راجع الخصائص (طبعة دار الكتب المصرية)

إلى علم الأصول كنسبة أرسططاليس إلى علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض . . فإن الناس كانوا قبله يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعارضون ، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعي - رحمه الله - علم أصول الفقه ، ووضع للخلق قانوناً كلياً يُرجَعُ إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع ، فثبت أن نسبة الشافعي إلى علم الشرع كنسبة أرسططاليس إلى علم العقل^(١) . وعاد الشافعي إلى العراق في سنة ١٩٥ ثم رجع إلى مصر سنة ١٩٨ وتركها إلى مكة ولم يلبث أن عاد إليها وظل بها إلى وفاته . وحمل عنه مذهبه في مصر تلاميذ كثيرون من أهمهم البُويطي المتوفى سنة ٢٣١ وقد انتشر مذهبه في كثير من بلدان العالم الإسلامي .

وأكبر تلامذة الشافعي في العراق أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ وقد استقل بمذهب فقهي جديد يُعَلَى من شأن الحديث إلى أبعد غاية ، وبذلك عدَّ ممثلاً لأهل السنة ، غير أن مذهبه لم يكتب له الانتشار كما كُتِبَ للمذاهب الثلاثة السالفة ، وإن كان قد ازدهر حديثاً بين الوهابيين .

وكان للشعبة في هذا العصر نشاط مستقل في الفقه ، إذ ينسب للإمام العلوي جعفر الصادق كتب مختلفة فيه مثل كتاب « مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة » المطبوع في طهران ومثل كتاب « فقه الرضا » لعلّي الرضا حفيده وهو كسابقه مطبوع بطهران .

وأهل علماً لم يزد في هذا العصر كعلم الكلام ، ويراد بالكلام الجدل الديني في الأصول العقيدية لا عند المسلمين وحدهم ، بل عند جميع الملل والنحل ، ومن أجل ذلك نرى الوصف بالمتكلم يضاف إلى بعض الرافضة مثل هشام بن الحكم وشيطان الطاق^(٢) ، بل نراهم يضيفونه إلى أهل الحجاج من المسيحيين^(٣) ، بل لقد أضافوه إلى أهل الجدل من المنازية الثنوية القائلين بالهي النور والظلمة الذين يحامون ويناضلون عن عقيدتهم الفاسدة^(٤) . وقد مضى كل متكلم مدافع عن

(٣) ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠ .

(١) مناقب الإمام الشافعي للرازي ص ١٠٠ .

(٤) الفهرست ص ٣٣٨ .

(٢) الفهرست ص ٢٩ - ٢٥٢ .

عقيدة في هذا العصر يتسلح في دفاعه بالفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق وغير منطق حتى ليقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة (١) » .

وأهم فرق المتكلمين في هذا العصر فرقة المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن عقيدة الإيمان الإسلامية وما يتصل بها من توحيد الله وتنزيهه عن التشبيه وحقائق النبوة والثواب والعقاب في الآخرة أمام المرجئة والحجبرة وروافض الشيعة والنصارى واليهود والدهريين الماديين والمناويين الشنويين . وقد ملئوا بمجادلهم وحجاجهم لهم مساجد البصرة وجذبوا بحسن بياتهم وقوتهم في الإقناع وإفحام الخصوم الشباب شعراء وغير شعراء . ورحل كثير منهم منذ أواخر القرن الثاني إلى بغداد ، فخلبوا الأبواب هناك ببياناتهم الساحرة وبما أوردوا على الناس من دقائق الأفكار ، وإذا الناس لا حديث لهم غير الاعتزال والمعتزلة ومناظراتهم لأصحاب الملل والنحل في المساجد الجامعة ، وإذا المأمون يعتقد عقيدتهم ، حتى شعبة خلق القرآن التي دلع شررها بشر المريسي كما مرّ بنا ، وحاول أن يعلنها عقيدة رسمية للدولة .

ولعلنا لا نغلو إذا سمينا هذا العصر عصر الاعتزال ، فقد بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم وأن وجهه حسب مشيئته ، وربما كان ذلك هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبه أصحابه ، فإنهم وضعوه ووضعوا معه محنة خلق القرآن على رقاب الناس ، فكان ذلك سبب سقوطه من حائق . ولكنه إذا كان قد أخفق حين استخدم السيف وغياهب السجون فإنه نجح نجاحاً كبيراً في أن صبغ العقول بصبغة فلسفية وأن مرتها تمريناً واسعاً على دقة التعليل والمهارة في الاستنباط للحفريات المعاني ودقائقها والبراعة في تفريغها وتشعيبها وتوليدها ، مع القياس الناصع والبرهان الساطع . وسرت من ذلك أسراب في جميع جوانب الفكر العباسي ، إذ أكب الناس على مناظراتهم وأكب معهم الشعراء ، بل قلما نجد شاعراً نابهةً في هذا العصر إلا وتلمذ لهم على نحو ما هو معروف عن بشار وأبي نواس وأبان اللاحق والعتابي ومنصور النمري وأبي تمام .

واختلف الباحثون في سبب تسميتهم معتزلة ، فقيل إن ذلك يرجع إلى اعتزال

أستاذهم الأول واصل بن عطاء للحسن البصرى ومجالسه ، وقيل بل يرجع إلى سريان نزعة زهد فيهم واعتزالهم الناس ، ورجح نالينو أنهم نعتوا بذلك لابتعادهم عن المنازعات الناشئة بين الخوارج وخصومهم من أهل السنة والشيعية ، فقد وقفوا على الحياد لا ينصرون فريقاً على فريق^(١) ، وبالمثل لم ينصروا العلويين على أبناء عمهم العباسيين ، بل ظلوا متمسكين بحيادهم ومضوا يناضلون غلاة الشيعة نضالاً عنيفاً على نحو ما ناضلوا المانويين والدهريين ، ولذلك احتضنهم العباسيون . واستطاع أستاذهم واصل أن يؤثر في زيد بن علي بن الحسين تأثيراً واسعاً وأن يحمله على التخلص من الآراء الشيعية الغالية .

وتميز الاعتزال بأصول خمسة ، هي التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والقول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فأما التوحيد فأراد به المعتزلة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين فهو ليس بجسم ولا عرض ولا عنصر ولا جزء ولا جوهر ولا يحصره المكان ولا الزمان ، وقد أولوا الآيات التي يُفهم منها مشابهته للمخلوقات من مثل : (يد الله فوق أيديهم) فعنى اليد في الآية عندهم القدرة ، ومضوا ينفون عن الله الصفات لأنها من عوارض الأجسام ، فقالوا إنها عين الذات حتى لا يتعدّد القديم جملّ جلاله ، ومن أجل ذلك نفوا عنه صفة الكلام ، ومن هنا اندفعوا إلى القول بأن القرآن مخلوق حتى لا يُظنّ أنه قديم ، ولا قديم سوى الله .

أما العدل فقد مضوا يُؤصلون عليه فكرة خلق العباد لأفعالهم وأنهم أحرار في إرادتهم ، وهي حرية ضرورية لكي يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم دون أن يظلمهم الله مثقال ذرة ، وقد أولوا الآيات التي تدلّ على الجبر من مثل : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ودفعهم هذا الأصل إلى القول بالصلاح والأصلح وأن الله لا يأمر بالشر ولا يعمل إلا ما فيه صلاح العباد وما هو أصلح لهم .

وأما الوعد والوعيد فهو أن الله صادق فيما وعد من ثواب وأوعد من عقاب ولا مبدل لكلماته ، وهم بهذا الأصل يردون على المرجئة الذين يرجئون الحكم على مرتكب الكبيرة ، فالله لن يغفر لمرتكب كبيرة إثمه إلا إذا تاب وأتاب ، وهو لا بد مدخل

(١) انظر التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية لعبد الرحمن بدوي ص ١٧٣ وما بعدها .

الأتقياء الجنة حسب وعده الذى وعده ، ومدخل العصاة النار حسب إيعاده الذى أوعده .

وأما القول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين فهو قول نفذوا به من خلال رأى الخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر ويجب حربه وقتله ورأى الحسن البصرى القائل بأن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق ، فقد اعتزلوا الرأيين جميعاً وقالوا إنه فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر . وبذلك لم ينتصروا - كما يقول نالينو - لطرف من طرفى هذه الخصومة .

وأما الأصل الخامس فيريدون به أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على سائر المسلمين كل حسب استطاعته ، وكان ينبغى وهم يعتقدون هذا الأصل أن يدفعوا الدولة للضرب على أيدي المجان والفساق وأرباب الدعارة ، وأيضاً كان ينبغى أن يصرخوا فى وجوه الخلفاء ضد طغيانهم وظلمهم للعامة ، وأن يصارحوهم بنظرية الإسلام فى الخلافة وأنها ليست حقاً من حقوق أهل البيت إنما هى حق الأكفاء من أبناء الأمة .

وقد أداهم النظر فى الأصول السالفة إلى مباحث كبيرة فى العلاقة بين الله والإنسان وبين الله والطبيعة وما فيها من قوى فعالة ، مما جعلهم يتوسعون إلى أقصى حد فى الأبحاث الطبيعية والرياضية والفلسفية . وتجردوا للرد على الملاحدة وأصحاب النحل والملل ودفعهم ذلك إلى الوقوف على كل التراث العقيدى والفكرى عند المستعربين من أهل الكتب السماوية وغيرهم كالنجوس والصائبة .

وواصل بن عطاء المتوفى بالبصرة سنة ١٣١ هو مؤسس فرقته كما قدمنا ، وهو أول من قال منهم بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة وسطى بين منزلتى الإيمان والكفر^(١) ، وكان يكثر من جدال أصحاب الملل والنحل . وخلفه على آرائه ختته عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٥ وكان يكثر من الجدال فى عقيدة العدل وما يتصل بها من حرية^(٢) الإرادة . وقد مضى تلاميذه فى البصرة يفرعون فى مسائل الاعتزال وبعض المسائل الفلسفية تفريعات انبثقت منها شعب اعتزالية كثيرة أهمها البشرية والثامية والهديلية والنظامية .

(٢) أمالى المرتضى ١٦٩/١ وضحى الإسلام
٩٧/٣ .

(١) انظر أمالى المرتضى ١٦٥/١ والشهرستاني
ص ٣١ .

والبشرية نسبة إلى بشر بن المعتمر المتوفى سنة ٢١٠ وقد تحول من البصرة إلى بغداد فنشر بها الاعتزال، وكان يقول بتفضيل علي بن أبي طالب على بقية الصحابة ومنه سرى هذا القول إلى أصحابه من معتزلة بغداد، وله أشعار كثيرة نظمها في التاريخ الطبيعي وفي أصناف الفرق والاحتجاج على أصحابها. وهو أول^(١) من ذهب إلى تولد الأفعال بعضها من بعض كالحجر يُرمَى فيحطم زجاجاً، فتتطاير منه شظية فتصيب إنساناً، وقد اشتق من هذه الفكرة بحثاً واسعاً في تحديد المسؤولية لزاء مثل هذا الفعل المتولد عن غيره. وكان يخالف بعض رفاقه من المعتزلة في فكرة وجوب الإصلاح على الله لعباده، لأنه لا غاية لما يقدر عليه من الصلاح، فما من أصلح إلا وفوقه أصلح منه، وإنما الذي عليه حقاً أن يمكن العبد بالقدرة والاستطاعة.

والثامية نسبة إلى ثمامة بن أشرس النُمَيْرِي البصري المتوفى سنة ٢١٣ وقد تحول مثل بشر بن المعتمر إلى بغداد، وكان يقول هو الآخر بتفضيل عليّ على الصحابة، كما كان يقول بخلق القرآن، وأكبر الظن أن بشر الميرسي هو الذي أقنعه بذلك. وكان المأمون يقدمه ويجعل له الرياسة على المتكلمين في مجالسه. وكان يذهب إلى أن الأفعال المتولدة لا فاعل لها^(٢) وأن المعارف كلها ضرورية وأن الحسن والقبح ذاتيان في الأفعال، وعلى أساسهما يدور التحليل والتحريم في الأوامر والنواهي الإلهية.

والهذيلية نسبة إلى أبي الهذيل العلاف المتوفى بسامراء لسنة ٢٢٧ وقيل: بل سنة ٢٣٥ وهو تلميذ عمرو بن عبيد وقد عُمر طويلاً، ويُعدّ المؤسس الحقيقي للاعتزال. وكان يرى أن الصفات الإلهية عين الذات العلية^(٣). وفرّق بين أفعال الإنسان الاختيارية وأفعاله الطبيعية أو بعبارة أخرى بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح. وتحدث في مسائل فلسفية كثيرة كسألة الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ ومسألة الكمون ككمون النار في الحجر وغير ذلك مما يتصل بالأبحاث الفلسفية والطبيعية.

٢٤٧/٣ .
(٣) الشهرستاني ص ٣٤ وأمانى المرتضى ١/١٧٨
وضحي الإسلام ٩٨/٣ ودي بورص ٥٧ .

(١) الشهرستاني ص ٤٤ وضحي الإسلام
١٤١/٣ .
(٢) الشهرستاني ص ٤٩ وضحي الإسلام

والنظامية نسبة إلى النظام المتوفى سنة ٢٣١ ويقول الشهرستاني إنه خلط كلام الفلاسفة بكلام المعتزلة وإنه كان يميل إلى تقرير مذاهب الطبيعيين من الفلاسفة دون الإلهيين ، وكان يرى أن الله لا يفعل إلا الأصلاح لعباده ، وأن إرادته التي يتحدث عنها القرآن الكريم إنما يراد بها الخلق والإنشاء . وكان ينفي الجوهر الفرد أو الجزء الذي لا يتجزأ^(١) . وأعلسى في مباحثه سلطان العقل إعلاءً بعيداً .

(١) الشهرستاني ص ٣٧ وضحى الإسلام
١٠٦/٣ ودى بورص ص ٥٩ .